

## القسم الأول

صور من الفتن

(ألا في الفتنة سقطوا)



**أولاً**

**فتنة التغريب**

**(نماذج من أساليب المستغربين العرب)**



## فتنة التغريب

ليس المجتمع مجموعة من الأفراد يعيشون في أرض محددة بل هو - مع ذلك - تنظيم معين ذو طابع إنساني يتم طبقاً لنظام معين، يقوم على عناصر ثلاثة: حركة يتسم بها المجموعة، وإنتاج لأسباب هذه الحركة، وتحديد لاتجاهها<sup>(١)</sup>.

ولكي تتم حركة تغيير أو تطوير أو تفاعل بين المجتمع - أي مجتمع - وبين مجتمعات أخرى، أو في مواجهة متغيرات إنسانية عامة، فإنه لابد من رصد المصدر الذي وفدت منه عملية التغيير<sup>(٢)</sup>.

فعندما تختل معايير التفاعل أو شروط التغيير تعجز - بالتالي - عناصر النظام الاجتماعي عن القيام بوظائفها ويتجه التغيير سلباً، ويمضي في طريقه إلى الإخلال بأركان البناء الاجتماعي حتى يصل به إلى الذوبان والانسحاق.

وأسوأ ما يصيب المجتمع - وهو يواجه عملية التفاعل أو التغيير - أن يصاب بالشلل من داخله، ويقع ذلك عندما ينجح العدو الحضاري في اختراق كيانه، وتحويل بعض أعضائه إلى حَمَلَة لأفكار الخصم وحماة لها.

(١) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين،

دارالفكر، دمشق، ص ١٥.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٩.

فهنا يتصارع المجتمع داخلياً، ويتعاون أفرادُه على تحطيم بعضهم وتبديد طاقتهم، فتتقدم العوامل الخارجية في فراغ، ويسود فقر الأفكار التي من شأنها - لو وجدت المناخ المناسب - أن تحقق التفاعل الحضاري وفق شروطه وعناصره، لربما تتعطل الأفكار تماماً وتصبح بعض أركان المجتمع لا همَّ لها إلا مواجهة الأركان الأخرى، بل ربما استعانت بالخصوم في مواجهة شركائها في المجتمع والحضارة !!

والمشكلة التي يواجهها العرب والمسلمون منذ إدراكهم للهوَّة الحضارية التي تفصلهم عن العصر، أنهم لم يستطيعوا وضع شروط التفاعل الحضاري وسنن الله في التغيير موضع تطبيق.

لقد كتب مفكروهم كثيراً من الكتب حول أسباب تأخر المسلمين ووسائل نهضتهم، وحول أزمة العقل العربي والإسلامي، لكن الحكام بصفة عامة حالوا دون أن تكون هذه الدراسات موضع الاعتبار والتقدير، بل ربما نظروا إليها على أنها كلام متفلسفين يعيشون في أبراج منعزلة بعيدة عن مفردات الصراع السياسي، كما أن الطبقة التي نجح خصوم الحضارة في اقتحام عقولها وإصابة وجدانها بالشلل الوطني والقومي والإسلامي، وجذبها إلى قبلتهم.. هذه الطبقة تبذل كل جهدها حتى لا تصل هذه الأفكار الأساسية في صناعة النهضة وفي التغيير الحضاري إلى أصحاب القرار، وإلى الذين يملكون القدرة على تحريك الأمة من خلال مؤسسات التربية والتوعية في اتجاه البناء الصحيح.

فإذا ذهبنا إلى الطرف الآخر - وهو (حضارة الغرب) التي اكتشفنا أنها الخصم الأكبر الذي يسعى لغزونا وسحقنا منذ شعرنا بقوته وهو

يدوس الأزهر بخيوله، ويدك القلعة بمدافعه سنة ١٧٩٨ م فيما يسمى بالحملة الفرنسية على مصر.. إذا ذهبنا إلى هذا الخصم نجده أيضاً يرفض التعامل معنا بأسلوب حوار الحضارات وأبجديات التفاعل الحضاري.. إنه جاء بخطة جاهزة ولأهداف محددة، وهو مستعد لأن يناور كثيراً مستخدماً كل وسائله الميكانيكية، لكنه ليس مستعداً لأن يتنازل عن خطته أو أهدافه.

فعلى الرغم من كل البيانات والمنشورات والتحليلات التي صاحبت وأعقبت الفزوة، إلى يومنا هذا، كان نابليون صريحاً في تحديد مهمته عندما قال: «سأستعمر مصر» انطلاقاً لبناء امبراطورية شرقية نابليونية. ومنذ دخول الحملة إلى الإسكندرية - بل قبل دخولها الإسكندرية في مطلة - أثبتت أنها حملة بربرية، فهؤلاء الذين جاؤوا لتحرير (المصريين) من المماليك كان أول ضحاياهم حاكم الإسكندرية (المصري) الذي رفض الحماية الأجنبية فأعدموه بعد التعذيب والحبس والتشهير.

وعندما صب نابليون نيران الثورة الفرنسية على الأزهر كان نابليون الذكي (الدجال) يعرف الحقيقة أكثر من صبيان المبشرين المعاصرين... لقد كان يعرف أنه بضربه الأزهر يضرب قيادة الأمة الصحيحة... يضرب تاريخها ومستقبلها الصحيح.

كان الأزهر يمثل الكيان المتميز لهذه الأمة، يمثل ذاتها وتراثها وإمكانية مستقبلها.. أدرك المحتلون ذلك كله، لذا نراهم في الوقت نفسه الذي يجرون فيه المفاوضات والمساومات مع الباب العالي بهدف التفاهم معه، ويعقدون الاتفاقيات مع فلول المماليك، ويصبح كبيرهم

«مراد بك» بمثابة موظف أو قائد قوة بوليسية تابعة للمحتل الفرنسي.. في الوقت نفسه كان الصدام يتصاعد يومياً بين جيش الاحتلال أو السلطة الفرنسية وبين الأزهر.. وانتهى ذلك الصراع بإغلاق وتسمير أبوابه بعد مصرع كليبر... وفي عهد خليفته - الذي ادعى الإسلام «عبد الله جاك مينو»<sup>(١)</sup>..

وقد وصلت الرسالة الاستعمارية إلى مجموع المصريين فهبوا من وراء الأزهر يقاومون الحملة التغريبية الفرنسية التي حاولت خداعهم بالمطبعة وبيع بعض الوسائل المادية العلمية الحديثة.. هبوا يدافعون عن حضارتهم وأصالتهم، مدركين بوعيهم الفطري الفروق بين التغريب والتحديث، فالتغريب هو الذوبان في الغرب بخيره وشره، وهو تبعية تشبه تبعية القروء والعبيد. أما التحديث فهو امتلاك المعرفة التي يتفوق بها الغرب وإنتاج كل المعدات التي ينتجها الغرب، وهي علاقة إنسان بإنسان وتلميذ بأستاذ، وليست علاقة عبد بسيّد ولا قرد بإنسان.. التحديث يعني المساواة بالغرب إنسانياً وعقلياً وفكرياً، والإيمان بأن التخلف شيء عارض يحتاج كل الأمم، وأنه ظاهرة طارئة يمكن علاجها عندما تلتزم الأمة بشروط النهضة، وتمتلك مؤهلات الحضارة وتمضي في مسيرتها ملتزمة بسنن الله الكونية.

إن التحديث يعني أن أعاني ميلاد الحضارة، وأن أنشر الخشونة والتقشف حتى أهين المناخ المناسب للرجولة والنضال والجهد، وأن

(١) - الأستاذ محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، ص ٨، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ، الدار العلمية، بيروت.

أهيئ نسبة كبيرة من دخلي لتنفق في العلوم ووسائلها وعلى ترجمة الكتب العلمية، لا على ترجمة كتب الترف الفني والمذاهب الفلسفية والروايات الانحلالية... بإيجاز: التحديث هو أخذ دوري في التنافس الحضاري من أجل صنع الحضارة مروراً بأعباء الحمل والولادة، وصبراً على تحمل كل الآلام.. وأن أومن، وأقنع كل المصريين والعرب والمسلمين، كما اقتنعت اليابان بعد هزيمة مدمرة، بأننا لسنا أقل من الأوروبيين في الإنسانية أو العقل أو الإبداع، وأن تخلفنا مرض طارئ لن يلبث أن يزول.

أما التغريب، فيبدأ من إقناع الأمة الشرقية بأنها متخلفة في جوهرها، متخلفة في تاريخها وصميم تكوينها، ومن ثم فلا بد من انسلاخها تماماً عن كل ما يربطها بماضيها ويميز ذاتها، وإعادة تشكيل المجتمع على الطراز الغربي من ناحية العادات والمظاهر السلوكية مع إبقائه متخلفاً عاجزاً عن إنتاج سلع الغرب.. عاجزاً عن اكتساب معرفة الغرب، فإذا ما اكتسب بعض أفراد هذه المعرفة، يجدون أنفسهم غرياء عاطلين عن العمل في مجتمعهم فيضطرون إلى النزوح إلى عالم المتفوقين<sup>(١)</sup>.

وإذا كان من حقائق علم الحياة أن عملية نقل الدم تخضع لشروط وقواعد دقيقة ينبغي مراعاتها مخافة أن يؤدي الأمر إلى زلزلة الجسم المتلقي والفتك به، إذ ليس كل عضو من عناصر الدم يقابل ليحل محل الآخر، لما بين فصائله من اختلاف عضوي يرجع في الحقيقة إلى

(١) المرجع السابق، ص ١٤.

اختلاف الأبدان<sup>(١)</sup>... إذا كان الأمر كذلك فإن التغريب هو عملية نقل دم مع اختلاف الفصائل والخلفية الثقافية والعقلية الحضارية ودون تعريض عملية النقل للتقنية والترشيح!!.

وقد هبَّ المصريون من وراء الأزهر فرفضوا التغريب وطردوا الحملة الفرنسية، مؤثرين أصالتهم على صفقة خبيثة تعطيهم منتوجات حضارة حديثة دون أن تعلمهم وسائل إنتاجها، وفي سبيل ذلك تقضي على مقوماتهم الحضارية.. وقد وصلت الرسالة الأزهرية الوطنية الإسلامية إلى الاستعمار الصليبي فأدرك أنه لابدَّ من أجل غرس التغريب أن يهدم الأصالة، أو على الأقل أن يصرف الأمة من حولها ويشل فاعليتها. ولما كان ذلك صعباً بل وفاشلاً بواسطة القوة، فقد لجأ إلى أساليبه الخبيثة المعروفة، فعمل على تجريد الأزهر من قيادته الفكرية، وجعله مدرسة أو جامعة مثل كل الجامعات، خالية من الإشعاعات ومن الرسالة الحضارية، بل أقرب ما يكون إلى المهنية والحرفية التقليدية المجردة من الإبداع ومن الدعوة والرسالة، ولهذا فقد بُنيت حول الأزهر في القاهرة أسوار من المدارس الأجنبية التنصيرية الحديثة التي تخضع للتصورات الإنجيلية والغربية. وفي مواجهة الأزهر على امتداد عدة كيلو مترات، وفي أرقى ميادين القاهرة، بنيت الجامعة الأمريكية مزودة بإمكانات مادية وفنية - وليست علمية - هائلة.

وفي معظم المدن الكبرى في مصر بنيت أيضاً مدارس تغريبية وتنصيرية وصار خريجوها في الأعم الأغلب طلائع للتحويل التغريبي،

(١) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص ٧٢، دار الفكر بدمشق، ١٤٠٢هـ.

كما بنيت أخيراً جامعة سنجور<sup>(١)</sup> في الإسكندرية معتمدة اللغة الفرنسية لغة أولى، رافضة الاعتراف باللغة العربية.

ونحن نعتقد أن ما سمي بقانون تطوير الأزهر إنما كان حلقة علمانية، حين وجد أساتذة شيوعيون يدرسون في الأزهر، وحين أفرغت الكليات الأصلية وهي الشريعة وأصول الدين واللغة العربية، من الطلاب المتفوقين، لولا أن لطف الله بالأزهر على يد الشيخ الجليل عبدالحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق رحمه الله رحمة واسعة !!

وفي مواجهة الانبعاث الأزهري الذي تألق في مواجهة الحملة الفرنسية، وقاد الأمة إلى مقاومة الاحتلال الفرنسي بضراوة من خلال ثورتَي القاهرة الأولى والثانية وما بينهما من انتفاضات فردية مستمرة.. في مواجهة هذا الانبعاث الذي كان من الممكن أن يقود مسيرتنا إلى الطريق الصحيح للمواجهة الحضارية بعد هذه المواجهة العاصفة بين الحضارة الأوروبية الصاعدة والحضارة الإسلامية التي كانت تحمل على كاهلها بقايا الممالك المتآكلين، وشيخاً عثمانياً هزماً يرفض الأخذ بسنن الله في التقدم الحضاري الشامل.. بعد هذه المواجهة أدرك الغرب خطورة الانبعاث الإسلامي فلجأ إلى طريقته الذكية التقليدية الناجحة حتى اليوم، وهي إحداث البديل المبدد للطاقة الصارف عن الحل الإبداعي الحضاري الأصيل.. فجاء بالتغريب ملفعاً بأردية مضللة يقوده الألباني محمد علي باشا..!!

(١) كان سنجور رئيس جمهورية السنغال السابق من الأطفال الذين وقعوا فريسة للتصوير مع أن أبويه وإخوته مسلمون، ولهذا احتفل به وأصبح رئيس جمهورية نصراني لدولة إسلامية.

وقد اتجه الرجل بسلاحه الغربي المستورد ضد إخوانه المسلمين في نجد يستأصلهم ويحارب انبعاثهم الإصلاحى الإسلامى على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب، ويدمر مدنهم ويأسر أبناءهم وشيوخهم، ويذبح كثيرين منهم... كما اتجه بسلاحه - كذلك - ضد الدولة العثمانية، بدلاً من أن يمد لها يد التعاون على الإصلاح وعبور الأزمة الحضارية، وفق منهج حضاري سليم<sup>(١)</sup>.

وحسبنا للدلالة على تمكين أجهزة التغريب العلنية والسرية من توجيه المسيرة الحضارية في مصر ضد مصلحة مصر الحقيقية، وضد تقدمها الصحيح وضد احتياجاتها الحقيقية.. حسبنا للدلالة على هذا أن نشير إلى هذا التقرير الذي صدر بالجريدة الرسمية بمصر<sup>(٢)</sup> عن البعثات الدراسية الخارجية التي قامت بها وزارة التعليم العالي بمصر في سنة ١٩٧٣م.

فبينما تشكو الأمة العربية من ضعف في النواحي العلمية والتكنولوجية، لانجد العلوم المتعلقة بهاتين الناحيتين تحتل أكثر من خمس بعثات من بين أكثر من مائتي بعثة، فتحتل دائرة التربية وطرق التدريس والعلوم الإنسانية - وهي تلك العلوم التي يجب أن تتصل بالبيئة والتراث والوضعيات المحلية المختلفة - تحتل هذه الدائرة أكثر من مائة وعشرين بعثة من بين البعثات المذكور عددها سابقاً، أي أنها تزيد عن النصف من البعثات حتى ليخيل للمرء أن مخططي البعثات يعمدون إلى مزيد من التمييز والتضليل بالنسبة للعملية التربوية في

(١) د. عبد الحليم عويس، المسلمون في معركة البقاء، ص ١١٠.

(٢) انظر جريدة الأهرام المصرية، ٨ يونيو ١٩٧٣م.

العالم العربي.. نعم في (العالم العربي)؛ لأن هؤلاء الأساتذة غالباً ما يوفدون إلى جامعات عربية ويتركون بصماتهم فيها ..

ونجد مثلاً فروع الطب والتمريض والصيدلة على أهميتها لا تحتل أكثر من عشرين بعثة من بين البعثات الموفدة للعام ١٩٧٣ - ١٩٧٤م.

أما فروع القانون (الحقوق) وحده، فإنه يفوز بعدد مواز للعدد الذي نالته جميع فروع الطب والصيدلة والتمريض.. أي قريباً من عشرين بعثة.

وبقية البعثات، أي حوالي ٣٥ بالمئة توزع بين كليات التجارة بأقسامها المختلفة، وبين بعض المعاهد المتخصصة كمعهد البريد ومعهد القطن ومعهد الفنادق وغير ذلك.

ومن النظرة المحايدة يتضح عدم حياد القائمين على البعثات كما يتضح سيرهم في التخطيط المدمر لما تبقى من عناصر الصمود في هذه الأمة (١).

فلم تكن هذه البعثات يوماً تحديثية تسد حاجة البلاد، وتعمل على تحقيق الفوز التكنولوجي الذي نبتغيه، بل كانت في مجملها بعثات تغريبية تقوم بدراسة الشعر والأدب والنقد والنحو والتربية... بل الفقه والتفسير والحديث، ولا ضير في وجود عدد محدود من البعثات لا تقدم ولا تؤخر في المجالات التطبيقية، إذ إنها لضعف وضعها لا تكفي لتطوير مدينة.. فضلاً عن بلد كمصر!!

(١) جريدة الاهرام عدد ٨ يونيو ١٩٧٣م المشار إليها سابقاً.

وهكذا كان التغريب هو الطريق المضمون لخسارة معركة التحديث، وكلُّ الدول التي تم تغريبها، أو اختارت طريق التغريب وانشغلت في قضاياها ظلت على تخلفها... بل وأخطر من ذلك أن «التغريب» يقضي على روح المقاومة في الأمة الشرقية، فيجعل استعمارها من قبل الدول الغربية المتفوقة أسهل، وحكمها أيسر، ويجعل استغلالها أعمق وأكبر عائداً... وأقل كلفة ومخاطرة.. (١)

والحقيقة أن بذور التغريب والانهازامية الحضارية تعود بدرجة كبيرة إلى هذه الحملة الفرنسية التي داست الأزهر بخيولها وقاومها الأزهر مقاومة شديدة، وقتل أحد طلاب الأزهر الشوام (سليمان الحلبي) قائدها الثاني بعد نابليون (كليببر) وحكم عليه التغريب الفرنسي الممثل لحضارة الحرية والإخاء والمساواة بحرق يده وهو حي وبقتله على الخازوق!!

هذه الحملة المشؤومة الفاشلة ذات دور كبير في وضع بذور التغريب في مصر... فقد استقطبت البغايا والأسافل والقواحش من النساء ليتدخلن مع الجنود الفرنسيين ويأخذن الأموال منهم، وترتفع شعارات تحرير المرأة من هذه المواخير المنشأة تحت راية نابليون وكليببر.. (٢) يقول الجبرتي:

«كان ذلك التدخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في إخفائه. فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيين ببولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات

(١) محمد جلال كشك، المرجع السابق، ص ١٥ الطبعة الأولى.

(٢) محمد جلال كشك، المرجع السابق، ص ٣٩٧، ٣٩٨.

صرن مأسورات عندهم، فزبنوهن بزي نساءهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر، ولما حل بأهل البلد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات في حوزة الفرنسيين ومن الأاهم... الخ» (١).

ولكن (لويس عوض) داعي دعاة التغريب والعلمانية ومؤرخ المدرسة الاستعمارية يصر على أن هذه الظاهرة البغائية الانحلالية هي من مظاهر التحرر في المظهر والسلوك بين نساء مصر، وأن هذه الظاهرة عمت نساء مصر وبالأذات الحرائر وربات البيوت!! ويعلق على تحليله الساذج المغلوط المفكر محمد جلال كشك فيقول:

لو كان الجبرتي يتحدث عن مجتمع الساقطات والفواحش بالمعنى الاجتماعي، لما كان هناك مجال للكلام عن الاحتشام واتقاء العار، فهو إذن يتحدث عن الحرائر من ربات البيوت وبناتها من سيدات المجتمع. وهؤلاء ما كان يمكن أن يخالطن الفرنسيات والفرنسيين إلا برضاء الأولياء عليهن.

وهكذا نجد أن المجتمع المصري في تحرره - في رأي لويس عوض - تحولت نسائه إلى بغايا يتعلقن بستررات جيش الاحتلال، وتحول رجاله إلى ديوثين يرضون بذلك (٢)!

وهذا هو تحرير المرأة على الطريق التغريبية... وهذه هي البداية المشؤومة!! كما وضعت هذه الحملة المشؤومة بذوراً تغريبية أخرى عن

(١) محمد جلال كشك، المرجع السابق، ص ٣٩٩.

(٢) محمد جلال كشك، المرجع السابق، ص ٤٠٠.

طريق استقطاب بعض الخونة كالمعلم (يعقوب بن حنا) وغيره من الأقباط لوضع بذور الفتنة الطائفية. وكان يعقوب هذا محتقراً من أكابر الأقباط المحترمين، وكان البابا المصري ضده، وحتى أسرته تبرأت منه، إذ كان سبباً للمصريين والشرقيين عموماً، نموذجاً للعمالة للمستعمر الغربي<sup>(١)</sup> لكنه - وأمثاله من الخونة - قد استغلّتهم الحملة الاستعمارية الفرنسية - على كل حال - لبذر بذور الفتنة الطائفية، وتحميل الأديان خيانة بعض المجرمين المحسوبين عليها، والأديان منهم براء !!

ولم تكد الحملة الفرنسية تخرج من مصر مدحورة غير مأسوف عليها بعد أن قاومها الشعب كله بقيادة الأزهر، حتى بدأت الجرائم تتبث هنا وهناك متأثرة بالصياغة الأوروبية للحياة، تلك التي تختلط فيها المطبوعة بالدعارة<sup>(٢)</sup>، وشعارات الحرية والإخاء والمساواة الصارخة (النظرية) باغتصاب الحرائر ونهب أموال الناس والهجوم على القرى الآمنة ليلاً، وقتل العلماء بمحاكمات عسكرية صورية، واصطناع العملاء من أمثال المعلم يعقوب، ونشر الفتن الطائفية بين أبناء الوطن الواحد، وحثّ الناس على خيانة أديانهم وأوطانهم!!.

ولما حكم محمد علي باشا (١٨٤٩م) مصر كانت هذه الأفكار المختلطة التي تشجعها الغرائز السفلى وعملية الانبهار الحضاري قد أئِنعت في

(١) محمد جلال كشك، المرجع السابق، ص ٤٢٤.

(٢) في أحد هوامشه ينقل الأستاذ محمد جلال كشك، عن «مورهد» أن أول قائمة بالطلبات التي أرسلها بونايرت إلى فرنسا فور احتلاله القاهرة لحفظ معنويات الجند تتضمن مائة مومس فرنسية، ولم يكن بونايرت يرفض انتشار المومسات المختطفات من المصريات، بل كان يرفض الأنواع المبتذلة منهن فقط (البلديات ١١)

عقول بعض العسكريين والمثقفين. ومن هنا بدأ محمد علي في الاعتماد في نهضته على أسلوب التفريب وليس التحديث، وبدأ بإرسال البعثات التي لم تذهب إلى فرنسا وبريطانيا لتتلمذ وتعاني مرحلة الإبداع الحضاري في نواحي التخلف التكنولوجية والتطبيقية والتنظيمية، وإنما ذهبت لتتنقل إلينا نموذج (تحرير المرأة) عن طريق السفور والاشتغال بالآداب الغربية والعلوم الإنسانية وفق التصور الأوروبي لها. وقد حمل كبر هذه الدعوة بإيجابياتها وسلبياتها ودون وعي حضاري رشيد، شيخ من صعيد مصر هو رفاعه الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ/ ١٨٠١ - ١٨٧٣ م). وكان الشيخ رفاعه قد اقترب من علماء الحملة الفرنسية على مصر فأبصر ما عندهم من علوم حديثة غريبة عن المحيط الإسلامي والعربي والمصري، وكان لهذا يقول بدون وعي بحدود ما يؤخذ وما لا يؤخذ، وبدون إدراك عميق للشروط الحقيقية للنهضة ومعادلاتها الصعبة... كان يقول: «إن بلادنا لا بد أن تتغير وأن يتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها»<sup>(١)</sup>.

ولما ذهب رفاعه الطهطاوي إلى باريس واعظاً للبعثة المصرية التي أرسلها محمد علي (١٨٢٦ - ١٨٣١) لم يكتف بمهمة الوعظ بل درس الفرنسية ودرس علوم الحرب. والهندسة والمعادن والقانون، ولما عاد إلى مصر نشأت من حوله مدرسة مهتمة بعلوم الغرب ترجمت خلال أربعين عاماً أكثر من ألفي كتاب من عيون الفكر الفرنسي، كما قدم رفاعه ومدرسته الفكرية نموذج المثقف ورجل الدولة الذي مارس كل أنشطته

(١) د. محمد عمارة، تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة ص ٧٧ (كتاب الهلال، شوال ١٤٠٢ هـ)

التتويرية من خلال الدولة وأجهزتها، لأن دولة محمد علي كانت هي الجهاز التتويري الوحيد في البلاد (١).

ولم يعد الناس ينقسمون عند رفاعة الطهطاوي إلى أهل كفر وأهل إيمان مهما كان مستواهم الحضاري العارض متدنياً، وإنما ينقسم الناس عنده إلى أهل تحضر وأهل خشونة، فالناس عنده مراتب ثلاث:

١ - الهمل المتوحشون.

٢ - البرابرة الخشنون.

٣ - أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر (٢).

وهو يضع عدداً من الشعوب «المؤمنة» بالإسلام في مرتبة «البرابرة الخشنين»، بينما يضع الأوربيين في مرتبة «أهل الأدب والظرف والتحضر والتمصر»، وهو يعتبر مخالطتهم والتفاعل معهم «المغناطيس الذي يجلب المنافع... فمخالطة الأغراب، لا سيما إذا كانوا من أولي الألباب، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجيب» (٣). وهو يعتبر أن الصلات التي عقدت بين مصر وبين الحضارة الأوربية، في عهد محمد علي باشا، واحدة من أهم الإنجازات، ويقول في ذلك: «فلو لم يكن لمحمد علي من المحاسن إلا تجديد المخالطات المصرية مع الدول الأجنبية بعد أن ضعفت الأمة المصرية بانقطاعها المديدة والسنين

(١) د. محمد عمارة المرجع السابق، ص ٧٩.

(٢) د. محمد عمارة، المرجع السابق ص ٨٠، نقلاً عن الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي ١٦/٢.

(٣) د. محمد عمارة، المرجع السابق ص ٨٠، نقلاً عن المرجع السابق ج ١ ص ٩٨. (ونحن نعتقد أن دراسة موضوعات الألفي كتاب المترجمة مؤشر خطير على الانحراف).

العديدة، لكفاه ذلك، فلقد أذهب عنها داء الوحشة والانفراد، وأنسها بوصول أبناء الممالك الأخرى والبلاد، لنشر المنافع العمومية واكتساب السبق في ميدان التقدمية..<sup>(١)</sup>.

وقد دعا الطهطاوي إلى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل.. ولكن في إطار الشريعة لا في سياق الأنساق الاجتماعية المتخلفة التي رانت على الحياة الإسلامية قبل عصور الوهن والضعف ... -

كما تناثرت في فكر الطهطاوي مضامين اجتماعية اشتراكية، وليبرالية سياسية، ومحاولة ساذجة للجمع بين الدستور الفرنسي والقواعد التشريعية المستقاة من الكتاب والسنة، وحديث عن الرقص يرفضه الإسلام، ودعوة لتضخيم التاريخ الفرعوني على حساب التاريخ الإسلامي.

لكننا - مع ذلك - نؤمن بأن رفاة الطهطاوي، شأنه شأن المدرسة الإسلامية التي احتكت بالغرب وجاهدت للحفاظ على الذاتية الإسلامية، لم يسقط في حفرة التغريب التي سقط فيها قاسم أمين ولطفي السيد وتوفيق الحكيم وطه حسين وأمثالهم، فضلاً عن المستغربين غير المسلمين الذين لا يمكن تجاهل بواعثهم الحقيقية من أمثال سلامة موسى، ولويس عوض وغالي شكري وأمثالهم..!!

لقد اختل الميزان في يدها في بعض الاجتهادات وأخطأت في علاج بعض قضايا التفاعل الحضاري ولم تكن في المستوى الراقي الذي

(١) د. محمد عمارة: المرجع السابق، ص ٨٠، ٨١، نقلاً عن الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي ٤٤٢، ٤٤١/١ (وأيضاً صلتها بالعالمين العربي والإسلامي ليست ضرورية كذلك!!).

ارتقى إليه عبد الرحمن بن خلدون أو مالك بن نبي<sup>(١)</sup>، أو محمد إقبال<sup>(٢)</sup>، أو عبد العزيز جايوش<sup>(٣)</sup>، أو علي شريعتي<sup>(٤)</sup>، أو بديع الزمان سعيد النورسي<sup>(٥)</sup> الذي اغترف من النبع القرآني الصافي أروع اغتراف، ووقف به صامداً أروع صمود في وجه مصطفى كمال الذي قاد أخطأً عملية تغريب في العالم الإسلامي إبَّان سقوط الخلافة العثمانية وتكالب الاستعمار الصهيوني الصليبي عليها..!!

أقول: إنه مع وجود بعض الخلل على النحو الذي ذكرت في مواجهة رفاة الطهطاوي ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني، ومدارسهم، في المواجهة السليمة للحضارة الغربية الزاحفة، إلا أن هذه المدرسة بقيت ذات وعي بقيمة حضارتها الإسلامية، وبقيت منتمية إلى أصول الإسلام ونصوصه القطعية، مؤمنة بأن الإسلام هو الهوية التي لا يجوز المساومة عليها... ومن هنا فإن رفاة الطهطاوي - كما يقول الدكتور محمد عمارة - قد وضع عدداً من التحفظات، ونبه على الفروق بيننا وبين

(١) مهندس جزائري عاش في فرنسا ثلاثين سنة ومع ذلك أدرك شروط النهضة الصحيحة فكتب عدة دراسات مختارة أهمها: شروط النهضة، ميلاد مجتمع، وجهة العالم الإسلامي، مشكلة الثقافة وغيرها.

(٢) شاعر باكستاني (هندي) مسلم كان يسمى الحضارة الأوروبية بالعاهرة المومس مع أنه عاش فيها مدة طويلة وقرأ فلسفتها فأتقن لغتها الأولى وله شعر رائع.

(٣) كان أزهرياً درس بجامعة أكسفورد في إنجلترا (١٩٠٣ - ١٩٠٦)؛ وكان من أفضل الناس تمسكاً بدينه ولغته وحضارته. محارباً للإنجليز سياسة وحضارة.

(٤) من أكبر فلاسفة الشيعة الفقهاء بعلوم الحضارة والاجتماع، ومن أفضل أعماله في هذا السبيل كتابه العودة إلى الذات، نشر دار الزهراء بالقاهرة.

(٥) واجه بديع الزمان سعيد النورسي أحلك عصور التاريخ الإسلامي الحديث، وهي فترة سقوط الخلافة العثمانية في تركيا بقيادة مصطفى كمال الملقب زوراً بـ «أتاتورك» / أي أبو الأتراك/. وكان سلاحه الحياة في ظلال النور وإخراج رسائل النور من معتقلاته ومنافيه الإجبارية ويواسطتها - وهو أعزل وحيد - أعاد حركة الإسلام في تركيا، وبتأثير بأفكاره أكثر من خمسة ملايين تركي!!

أوروبا، وحدد أن ميدان الأخذ والاستلهام هو علوم الدنيا وفنونها، دون علوم الدين.. فإعجابه بالعلوم والمعارف الدنيوية لم ينسحب على فلسفتهم، فتحفظ عليها قائلاً: «غير أن لهم في العلوم الحكيمة - (الفلسفية) - حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية.

وترجمة الطهطاوي للقوانين الأوروبية - والفرنسية خاصة - بطلب من الدولة لم تجعله يغفل عما في التراث الإسلامي من فقه في المعاملات، جدير بأن نحييه، ونطوِّع قواعده لظروف الزمان والمكان وما حملت من تجدد في المصالح وتغيرات في العادات والأعراف.. فيتحدث عن هذا الجانب من تراث الأمة فيقول: «والمعاملات الفقهية، لو انتظمت، وجرى عليها العمل، لما أخلَّ بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحال، مما هو سهل على من وفقه الله من ولاة الأمور المستيقظين».

ثم - وهذا مهم جداً - فإن إعجاب الطهطاوي بنمط التطور والتحضر الأوروبي، لم يحمل شبهة دعوة إلى أن يتبع الشرق الغرب... بل لقد كان الرجل يقظاً إلى خطر تلك النفسية الاستعمارية التي تريد احتواء الشرق واستعمارها بواسطة التبعية الحضارية، وهو وإن لم يرفض مدينة الغرب تبعاً لرفضه استعمارها، فإنه ميّز بين العلاقات الحضارية وبين الضم والتبعية والإلحاق<sup>(١)</sup>.

وفي موضع آخر يقول الدكتور عمارة بأسلوب مباشر عن رفاة : ويشهد على أن هذا كان موقف هذه النهضة من هذه القضية ما نراه في فكر الطهطاوي.. ذلك الذي انفتح على «التمدن الأوروبي» كل

(١) محمد عمارة، تيارات البقطة الإسلامية الحديثة، ص ٨٩ - ٩١.

الانفتاح، وأنجز على درب الاستفادة منه أعظم الإنجازات، وذلك دون أن يفقد قيمه الإسلامية الخاصة - بل والأشعرية والمحافظّة - أو يفقد خصائصه الحضارية العربية الإسلامية<sup>(١)</sup>.

وأياً كان الأمر فإن تجربة محمد علي التحديثية لم تلق النجاح المنشود لأنها تبنت التغريب الجاهز المقلب واختلطت لديها المعايير، ولم يكن لديها وعي اليابانيين أو اليهود...!

وقد استغله الأوروبيون - في الحدود التي سمحوا له فيها - بالنهضة التقدمية - فجرّوه إلى حروب خاسرة ضد إخوانه في نجد والسودان وضد الدولة العثمانية ، ودفعوه على نحو ما دفعوا غيره بعد ذلك للامتداد السياسي والعسكري دون أن يكون قد امتلك النموذج الصالح الذي يمتد بطريقة عفوية وتلقائية في محيطه الحضاري.

ولسنا نتفق في هذا الموقف مع الدكتور محمد عمارة في أن أسباب إخفاق محمد علي أن صورة القيادات الدينية قبيل عصره وفي السنوات لأولى من حكمه، لم تكن لتقرض الاحترام على من هو في مثل طموح هذا الرجل..!

فالحق أن هذه القيادات الدينية - حتى مع وضعيتها المبالغ فيها هذه - قدمت نماذج رائعة في فترة الحملة الفرنسية، كما أنها قدمت نماذج رائعة في مواجهة استبداد المماليك، وحاولت الوقوف ضد استبدادية محمد علي وتوجّهه الاندفاعي الغربي.. وقد كان بإمكانه التفاعل معها - لو شاء - لكنه آثر الحكم المطلق، وقضى - بأسلوب تأمري خبيث -

(١) محمد عمارة، المرجع السابق، ص ١٢٢.

على السيد عمر مكرم (١١٦٨ - ١٢٣٧) وتكرّر لكل العهود التي كان قد أعطائها لمن وقفوا معه من القادة الإسلاميين حتى ملك زمام مصر.

وأخطر من ذلك أنه - وهو يتجه وجهته التغريبية - قد عمد إلى عزل الأزهر وإنشاء مؤسسات تربوية وتعليمية بعيدة عن التوجه الإسلامي... فكان منهجه امتداداً طبيعياً لمنهج الحملة الفرنسية على مصر.. وهو المنهج الذي يقوم على ترك الأزهر يموت تلقائياً ويتجاوز الزمان، بينما تقوم حوله مؤسسات تغريبية حديثة تشلّ فاعليته وتجعل أبناءه في مؤخرة الصفوف !!.

واستمراراً على منهاج القضاء على رسالة الأزهر وعزله عن مصر والعالم الإسلامي وهو المنهج الذي أرست قواعده الحملة الفرنسية وتبناه محمد علي... استمراراً على هذا المنهاج وقف اللورد كرومر الحاكم الإنجليزي لمصر ومعه دانلوب مستشار وزارة المعارف المصرية يفكران في أساليب أخرى فاعلة تقضي على الأزهر قضاءً كاملاً وانتهى بهم تفكيرهم إلى أنه لا بد من أحد أمرين:

إما تطوير الأزهر وقبوله للمنهج الغربي في التعليم ومزاحمة العلوم الدينية بأكثر منها من العلوم الدنيوية.

وإما إنشاء مدارس وجامعات مدنية تدرس علوم الدنيا فقط ولا صلة لها بالدين.

وقد وجدوا أن الغرض الأول مستحيل التحقيق في ذلك الوقت، فاتجهوا إلى الغرض الثاني فأنشؤوا مؤسسات التعليم المدني وحاولوا أن

يرفعوها فوق التعليم الديني، حيث أغدقوا على خريجيهما وأساتذتها الأموال والمرتببات المغرية، بينما ضيقوا على خريجي الأزهر فكان مرتبهم ثلاث جنيهات فقط في الشهر... هذا من الناحية المادية، أما من الناحية المعنوية فقد لجأ الاستعمار الإنجليزي إلى استخدام أجهزة الإعلام في التنفير والسخرية من طالب الأزهر وأستاذه، وراحوا يفرقون في المدارس بين مدرسي الدين واللغة العربية، وبين مدرسي المواد الأخرى تفرقة مرسومة، الهدف منها هو التنفير من التعليم الديني ومحاصرته (١).

وعلى الدرب نفسه الذي يهدف إلى إجهاض دور الأزهر وخنق رسالته الإسلامية قام المنصرون والمستغريون بنشر عشرات المدارس والكليات في ربوع مصر... ومن أهمها المدارس والكليات (البروتستانتية) التالية:

- ١ - كلية التجارة بالعطارين بالإسكندرية.
- ٢ - مدارس الأمريكان بالقاهرة.
- ٣ - مدارس الأسقفية الإنجيلية بسراي القبة.
- ٤ - الجامعة الأمريكية (التي أنشؤها لمزاحمة الأزهر).
- ٥ - كلية البنات الأمريكية بشارع رمسيس.
- ٦ - مدرسة الأزيكية للبنات بالقاهرة.
- ٧ - كلية البنات الأمريكية بأسسوط.

---

(١) سعد الدين السيد صالح، احذرو الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، ص ١٦٦، نقلاً عن الأزهر ودوره في تكوين العالم الثالث للدكتور محمد.

٨ - كلية البنات الأمريكية بالأقصر.

كما أنشؤوا مدارس وكرليات (كاثوليكية) منها:

١ - المعهد الشرقي بدير الدومنيكان بالعباسية بالقاهرة.

٢ - معهد دار السلام بكنيسة دار السلام بمصر القديمة.

٣ - المعهد الفرنسي بالمنيرة.

٤ - مدارس الفرنسيين سكان بالفجالة.

٥ - مدارس القرير بالخرنقش<sup>(١)</sup>.

وغير هذه توجد عشرات المدارس المدعمة من الفاتيكان، ومن فرنسا، ومن شتى هيئات التصدير العالمية التي تدير آلاف المدارس والكرليات في العالم، ويعمل فيها مئات الألوف من المعلمين غير المسلمين والمسلمين!!

وقد نجح دانلوب في جعل اللغة الإنجليزية لغة التدريس لسائر العلوم كالرياضيات والتاريخ والجغرافيا والرسم، وبذلك ضيق على اللغة العربية وحاول القضاء عليها، كما جعل الدين مادة ثانوية ليس لها من الأهمية ما لمادة الرسم، أو الأشغال، أو حتى الرقص البلدي في معاهد البالية، وحاول أن يحرر كتب المطالعة واللغة العربية من كل ما له علاقة بالدين<sup>(٢)</sup>.

فلما جاء عهد الاستقلال السياسي، ونجحت حركة يوليو ١٩٥٢م في الاستيلاء على السلطة بمصر، بدأ الانتقال إلى الشطر الثاني الذي

(١) ينظر في التعرف على هذه المدارس: إبراهيم خليل أحمد: التبشير والاستشراق طبع مصر ص ٢٩ وغيرها، وينظر عمر فروخ: الغارة على العالم الإسلامي (شاتليه)، طبع مصر، ص ٦٨ وما

بعدها، وينظر سعد الدين صالح، احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام ص ٧٥.

(٢) سعد صالح: المرجع السابق ص ١٦٦، ١٦٧.

عجز الاستعمار عن الولوج فيه بطريقة مباشرة، وهو القضاء على الأزهر نفسه عن طريق اختراقه من داخله، وتوجيه خريجه النابهين إلى المواد العلمية المحايدة، وتحويلهم إلى أطباء ومهندسين وزراعيين وصيادلة ومحاسبين عاديين جداً.

وبصرف النظر عن الكلمات الكبيرة التي وردت فيما يسمى بـ (قانون تطوير الأزهر، فإن شيئاً منها لم يتحقق في الحقيقة، فلم يذهب أطباء، ولا مهندسون أزهيون لنشر الإسلام في مجاهل أفريقيا أو أدغال آسيا، بل كان حسب كثير منهم أن ينسى الناس أزهريتهم وأن تقترب قامتهم من طب القاهرة وهندسة عين شمس!!

وقد لا يكون المخطط قد نجح تماماً - بلطف الله ورحمته بالمسلمين وبالأزهر ثم برجال عمالقة من أمثال الشيخ عبد الحليم محمود والشيخ جاد الحق علي جاد الحق وغيرهما - لكن المعركة مستمرة، وكتائب التغريب ماضية في طريقها تقفز من معسكر الماركسية إلى معسكر الليبرالية العلمانية بسرعة هائلة، وتركب أي موجة تقترب بها من هدفها وهو فرض التغريب والقضاء على إسلامية مصر، بعد أن قامت بتغريب تركيا بطريقة جنونية بواسطة رجلها الشاذ مصطفى كمال!!.

وفي العصر الماركسي أو الاشتراكي أهين الأزهر كثيراً من الإهانات، وكانت رموزه موضع سخرية في الأفلام والإذاعات وشاشات التلفاز، بل وقد سُبَّوا على ألسنة المسؤولين ووصِمُوا بأقبح الألفاظ لمعاداتهم للزحف الأحمر الماركسي!!

فلما سقطت الماركسية بكل ظلالها المادية والإلحادية، وظهرت بدعة النظام الدولي الجديد، وكان للعلماء دور رائد في مقاومتها - كان المأمول أن يكف التغريب وسدنته الماركسيون والعلمانيون وأن يعودوا إلى رشدهم بعد سقوط إمبراطورية الإلحاد، وسقوط فكرة «الحتمية التاريخية والمادية» المتخلفة (١).

لكن الأمر جاء على العكس من ذلك، فقد بدأت موجة حادة تحت مسميات الحرب على (الأصولية) وعلى (المتطرفين) الذين قال عنهم الرئيس محمد حسني مبارك نفسه: «إن مجموع جرائمهم في سنة كاملة في مصر لا تساوي جرائم المتطرفين في أمريكا في أسبوع» (١) - ومع ذلك تُضخم جرائمهم ويتكئ المستغربون عليها لتشويه الإسلام والتحريض على ملاحقة كل العاملين له، والغيورين عليه، بصرف النظر عن اعتدالهم أو غلوهم، فهم جميعاً يضمرون عدم الاعتدال (١).... ويجب محاكمتهم على ما في قلوبهم وضمايرهم (١).... وهذه هي عدالة العلمانية الديمقراطية (١).

ولقد تكالب على إهانة الأزهر ورجاله عبر مقالات كثيرة، وفي أكبر الصحف، عدد كبير من حَمَلَة راية التغريب والعلمنة... وكان لمجمع البحوث الإسلامية ولفضيلة شيخ الأزهر النصيب الأوفر في هذه الإهانات... كما أن الكاتب الصحفي إبراهيم عيسى كان دائماً يوجه أكبر اتهاماته لتشويه الشيخ محمد متولي الشعراوي والشيخ محمد الغزالي، وبقية رموز الأزهر والدعوة الإسلامية المعروفة على الساحة الإسلامية.

(١) الأهرام - عدد الجمعة - حديث إبراهيم نافع مع الرئيس حسني مبارك بتاريخ ١ أكتوبر ١٩٩٣.

وإن قليلاً جداً من هؤلاء المحللين والمشوهين للأزهر ورجاله من ذكر في كتاباته وتحليلاته، أن السبب الأكبر في وجود جماعات إسلامية متطرفة تعطي حق قياد زمامها فكرياً وحركياً لأغرار قليلة العلم، إنما يرجع إلى هذه المؤامرة الطويلة للقضاء على دور الأزهر، وعدم تمكنه من رسالته، وترك الفاعلية للقوى المستغربة المحاربة لدين الأمة وحضارتها، التي تحيط بالأزهر إحاطة السّوار بالمعصم في الإعلام والمدارس والجامعات الأجنبية والمصرية (١١).

وبدلاً من مواجهة هذه الحقيقة الناصعة والحث على علاجها، انهالوا باللّوم والتّقريع على الأزهريين ودعاة الإسلام، فتارة يُقال إنهم: وافقوا الحاكم وسايروه وأصدروا الفتاوى من أجل التّكليف مع الأوضاع.. فإذا رفضوا موافقة الحاكم، وتكلموا وفق اجتهاداتهم وفقههم الصادق بدينهم، وشهدوا بما يعلمون حق العلم - مصيبين أو مخطئين - مثلما شهد الشيخ صلاح أبو إسماعيل والشيخ محمد الغزالي والشيخ مزروعة في قضية اغتيال العلماني فرج فودة.. فالويل - كذلك - لهم والتّقريع يتم بالمستوى نفسه!! فعلماء الإسلام ملومون إن كانوا مع السلطان أو كانوا مع القرآن... والويل لهم إن شرّقوا أو غرّبوا..!! فليس المهم الصواب أو الخطأ وإنما المهم تشويههم وإجهاض دورهم!!.

ولأننا لانستطيع استقصاء كل صور إهانة الأزهر ورموزه في الأحقاب الأخيرة، ولأنها معروفة مذكورة في مظانّها من التاريخ الحديث والمعاصر.. فنحن نكتفي بإيراد هذه المقتطفات من مقالة كتبها فرج فودة (أحد أقطاب العلمانية والتفريب) يخاطب فيها شيخ الأزهر

(آنذاك) الشيخ جاد الحق علي جاد الحق بمناسبة تصديه لزمرة من المارقين المنادين بفصل الدين عن الدولة.. يقول فودة (١):

لشيخ الأزهر أن يحمد الله كثيراً على أن الشريعة ليست مطبقة في مصر، لأنها لو طبقت لاستحق أن يجلد تعزيراً بتهمة القذف!! وأغلب الظن أن ذلك كان سيحدث على ملأ، وأن جسده الرهيف كان سيعجز عن تحمل قسوة الجلاد، للجسد الإنساني أحكام، وشتان بين الجسد الذي ذاق حلاوة السمن البلدي وطراوة الزيد الهولندي، وبين جسد عمر ابن الخطاب الذي اسود جلده من أكل خبز الشعير بالزيت، أو أجساد من كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، أما جريمة شيخ الأزهر، وهي في شرع الإسلام جريمة بكل المقاييس، فهي قذف بعض خيار المسلمين في خطابه للأستاذ هويدي، ونعتهم بالخروج عن الإسلام، وبالعامة للقوى المعادية للإسلام!!..

وما ضرنا أن تسكن في قصر منيف، وما ضرنا أن تحصل على مرتبك من أموال دولة المسلمين، تلك التي تتعتها بأنها ربوية، وتصف بعض مصادر دخلها بأنها آثمة لأنها تأتي من المشروبات الروحية، وما ضرنا أن نسمعك تقرأ في المناسبات الدينية خطباً مكتوبة يملؤها نطقك بالأخطاء النحوية... وما ضرنا هذا كله، لكن الضر كل الضر أن تبصروا أنك يمكنك أن تخيف، وأنه بمقدورك أن تمنع كتاباً هنا وتصادر رأياً هناك، وأن تتخيل أنه بيدك خزائن الدين، وأن بيدك بمفردك صكوك الغفران، توزعها كما تشاء، فتغفر لمن تشاء، وتكفر من تشاء..

(١) لم يكن فرج فودة قبل أن يهلك، ولا أمثاله حتى اليوم، قادرين على استعمال مثل هذا الأسلوب الحقيقير مع أصغر قسيس، فضلاً عن أحد كبار رجال الكنيسة.

ثم ختم فرج فودة مقاله مههداً شيخ الأزهر بقوله:

أحمد الله يا شيخ الأزهر على العيش الهنيء، والطعام المريء،  
واذكره واشكره كثيراً على تخلف المسلمين، لأنه المحافظ لمنصبك!! ولا  
تتخيل للحظة واحدة أن أحداً سوف يسمح لك برئاسة محاكم التفتيش،  
وبالاثهام والقمع، وبالتهديد والمنع. واصمت نصمت، وكف نكف؛ لأنك إن  
عدت عدنا، وإن قلت زدنا، واقرأ - عافاك الله - قبل أن تكتب، فلعلك  
إن قرأت يفتح الله عليك باباً من أبواب العلم والاجتهاد<sup>(١)</sup>.

هذا.. وفي الوقت الذي يهبط فيه فرج فودة بأسلوب حوارهِ إلى هذا  
المستوى الرديء مع الرجل الأول في أكبر الجامعات الإسلامية وأقدمها  
في العالم، تجاوباً مع ما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون من ضرورة  
الحط من كرامة علماء الدين الإسلامي في أعين الناس إضراراً  
برسالتهن التي كان من الممكن أن تكون عقبة كبيرة في طريق السيطرة  
اليهودية العالمية<sup>(٢)</sup>.

في هذا الوقت نفسه يجرد فرج فودة قلمه - بكل قوة - للدفاع عن  
رجال الدين من الأقباط ويتحدث عنهم بكل إجلال، ويتكلم عن البابا  
شنودة بكل تكريم، ويطالب لهم بحزب ديني لأنهم منضبطون حتى في  
ردود أفعالهم، وليسوا كعلماء الإسلام الهمج الذين لا يستحقون أن يكون  
لهم حزب إسلامي.. يقول:

إنه على العكس من تمزق التيار السياسي الإسلامي إلى أجنحة  
مختلفة وربما متصارعة، وتوزع ولائه بين قيادات متعددة ومختلفة يبدو

(١) جريدة الأهالي عدد ٢٢ (مارس ١٩٨٨م).

(٢) انظر الخطر اليهودي: بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة محمد خليفة التونسي، ص ٢٠٤.

التيار السياسي القبطي متماسكاً بصورة لم تحدث من قبل، كما أنه يدين بالولاء لقيادة واحدة شرعية هي (البابا)!!.

وعلى الرغم من اعتراض الكاتب على رجال الدين للعمل السياسي في كلٍ من الجانبين الإسلامي والقبطي، إلا أن توحّد التيار السياسي القبطي تحت قيادة غير مختلف عليها يمثل نقطة إيجابية واضحة، لأنه إذا لم يكن ممكناً التحكم في (الفعل الإسلامي) فإنه يمكن التحكم في (رد فعل القبطي) من خلال إمكانية التفاهم مع قيادته، ومساحة التفاهم واسعة من منطلق إحساس الأقلية بالخطر، وسعيها المبرر لتحجيم المشكلة (١).

ونحن نرفض أدنى إهانة لرجال الدين الأقباط في بلدهم مصر... بل نرفض كذلك أدنى إهانة للأقباط سواء كانوا رجال دين أم لم يكونوا... لكننا ندين فرج فودة وأمثاله من دعاة الفتنة الطائفية والتفرقة العنصرية ونطالب باحترام علماء الإسلام أيضاً فضلاً عن احترام شيخ الأزهر الذي يجعله أكثر من مليار مسلم، ويتبوأ من نفوسهم موقع الوالد والمعلم والمرشد... دون قداسة أو كهانة... فلا كهانة في الإسلام، ولا عصمة لأحد بعد رسول الله (ﷺ)!!.

إن موقف الكتلة العلمانية التغريبية المصرية (٢) المعاصرة من الأزهر ومن رموز الدعوة الإسلامية، إنما هو استمرار على الطريق نفسه..

(١) د. صلاح الصاوي، المواجهة بين الإسلام والعلمانية ص ٨٤، ٨٥ (نقلًا عن حوار حول العلمانية: ص ٧).

(٢) تراجع جرائد ومجلات الأهالي وروز اليوسف وصباح الخير وكتابات عبد المعطي حجازي وغالي شكري وحسين أحمد أمين وسعيد عشاوي وإبراهيم عيسى وخليل عبد الكريم (الماركسي) وغيرهم من الذين يتجرؤون على علماء الإسلام ويعجزون تماماً عن المساس بأي رجل دين مسيحي!!.

الطريق الذي بذرت بذوره الحملة الفرنسية حين داس نابليون الأزهر بخيولة، وحين شنق وسجن عشرات من علمائه المخلصين وأذلهم أمام ذويهم وأمام الشعب... الطريق الذي عزل فيه محمد علي الأزهر عن الفاعلية الحية.. الطريق الذي صدر من أجل تكريسه قانون تطوير الأزهر.. الطريق الذي يسعى - مستخدماً كل وسائل العصر التربوية الإعلامية - من أجل القضاء على الذات الإسلامية الإيجابية القادرة على الإبداع الحضاري، والمؤهله لمحاورة الحضارات وليس الذوبان فيها والتبعية لها والتضحية برسالتها التي ابتعثها الله من أجل تبليغها الشهادة على الناس بموازين العدل الثابتة التي لا تتبدل وبالحق المطلق الذي يقره النقل والعقل...

ثانياً

فتنة الحرب على الإسلام

باسم حقوق الإنسان



الطبيعة الإنسانية للإسلام

(مقارنة لحقوق الإنسان في السلم والحرب

بين الإسلام واليهودية)



## الطبيعة الإنسانية للإسلام

### أولاً: التسامح والرحمة في الإسلام

في أسلوب حصر بلاغي يحدد الإسلام - في كتابه الكريم - وظيفة الرسول (ﷺ) على أنه رحمة لكل العاملين.

لقد خاطب الله نبيه محمداً (ﷺ) بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(١)</sup>، وبقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾<sup>(٢)</sup>.

فإن على المسلمين - مهما كانت أجناسهم أو أوطانهم - أن يتبهاوا إلى أنهم حملة راية العدل والرحمة بعد أستاذهم ومعلمهم محمد (ﷺ)، وعليهم أن يتبهاوا إلى أن الأمانة التي ائتمنهم الله عليها وهي (البلاغ للناس بالقرآن)، إنما هي نور للناس جميعاً إذا آمنوا بها، لا فرق بين أسود وأبيض.. يقول الله تعالى: ﴿... قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾<sup>(٣)</sup>.

وُستنتج من هذا أن المسلمين مسؤولون عن إنقاذ البشرية جميعها، فحتى لو تأججت الأحقاد والعنصريات في صدور أعدائنا، فالمسلمون

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) سبا: ٢٨.

(٣) المائدة: ١٥-١٦.

لم يبعثهم الله ليواجهوا حقداً بحقد، ولا عنصرية بعنصرية، بل عليهم أن يحافظوا على راية العدل والتسامح والرحمة مع الإنسانية، وألاً يخضعوا لاستفزازات أعدائهم التي يرومون من خلالها إلى زحزحتهم عن مبادئهم.

ولعله من أكبر آيات التسامح الإسلامي والشعور بالمسؤولية الإنسانية، أن العلماء والدعاة المسلمين عندما يعرضون لقضايا الخلل الإنساني، لا يصدر عن شعور عنصري يحصر علاجهم في المحيط الإسلامي أو القومي، بل يعملون على حلّ مشكلات حضارات العصر الحديث كلها، دون أن يحصروا حلّ المشكلات في الدائرة الإسلامية أو العربية أو التركية وحدها، إنما يعرضونها ليحلوا بها مشكلات الحضارة المادية الحديثة كلها... تلك الحضارة التي حبسها (العقل) في إطار (المادة) و(المنفعة) و (النسبي)، وأصبحت عاجزة عن إدراك الكمال والجمال في الروح والمطلق والغيب وضرورة الإيمان بالكينونة الإنسانية، والعمل المشترك على استمرار التحضر الإنساني العام... الذي يضم المسلمين وغير المسلمين.

ولقد أدرك المسلمون أن هناك خللاً وقع في المسيرة الإنسانية نتيجة التحيز للمادة على حساب الروح أو العكس.

ولقد أصاب هذا العجز الحضارة الإنسانية بالشلل النصفى؛ لأن الروح أو الغيب أو المطلق لا تنفصل عن العقل والمادة والنسبي... ولأن (المطلق) هو (المعيار) الأساس للحق، ورفض التعامل معه يعني رفض السير في طريق الحق، تحت ضغط الإيمان المشلول بالمادة والنسبي،

وهو الممر المؤدي إلى عبادة الإنسان لنفسه بدلاً عن عبادة الله الذي يؤمن المسلمون بأنه وضع للكون والإنسان نظاماً من خلال الوحي والأنبياء، وهو نظام متطابق مع فطرة الإنسان.

لقد كان الإسلام - لأنه دين الفطرة والحق - حافزاً على تشكيل كيان متميز لم تستطع تقلبات الزمن والاحتكاك بالحضارات المختلفة أن تفتت في عضده على مرّ العصور.. فإن كل شيء في الإسلام يشكل وحدة، ويعبر في الوقت نفسه عن وحدة، وفروض العبادة تعبر بطريقة ظاهرة، بل بطريقة مادية عن التماسك والالتحام، فالمسلمون يسجدون في صلواتهم خمس مرات يومياً في ساعات متماثلة تقريباً، وفي اتجاه واحد نحو مكة.

وتعبر النية الدينية المصاحبة للعبادات لكل شعيرة عن وحدة الإنسان روحياً ومادياً.

ويسهم الإيمان - أيضاً - كما تسهم الشعائر في تضامن الجماعة الإسلامية وتجانسها، وتدفعها جميعاً نحو تحقيق عالميتها.

إن جماعة المؤمنين، - وإن قامت على الدين - فإنها نجحت في الصمود أمام التفكك السياسي، كما أن الروابط الدينية فوق التخوم والحدود بين الدول، لم تتأثر كثيراً بذلك التفكك السياسي<sup>(١)</sup>.

يقول الكاتب والصحافي السويسري الكبير الذي هداه الله إلى الإسلام (روجيه دي باسكيه): لقد جاء الإسلام إلى الناس لمساعدتهم

(١) أحمد عبد الوهاب - الحضارة الإسلامية وجهتها الله والحضارة الغربية مركزها الإنسان، ص ٦٢، الناشر دار الصحافة، القاهرة ١٩٩٩ م (نقلاً عن مارسيل بوزار في كتابه إنسانية الإسلام).

على عبور هذه المرحلة الأخيرة من التاريخ العالمي دون أن يتعرضوا للضياع، وباعتباره الوحي الأخير في سلسلة النبوات، فإنه يقدم وسائل لمقاومة الفوضى التي تسود العالم حالياً، وإقرار النظام والتقاء في داخل الإنسان، وإيجاد التآلف والانسجام في العلاقات الإنسانية، وتحقيق الهدف الأسمى الذي من أجله دعانا الخالق إلى هذه الحياة. إن الإسلام يخاطب الإنسان الذي يعرفه معرفة عميقة ودقيقة محدداً بالضبط وضعه بين المخلوقات وموقفه أمام الله (١).

إن الفكر الحديث - كما يتابع باسكيه حديثه - على العكس من ذلك، إذ ليس لديه معلومات دقيقة متفق عليها تتعلق بعلم الإنسان، ولم يحدث في حضارة أخرى غير هذه الحضارة الأوروبية المادية ما حدث من تجاهل بطريقة منظمة وشاملة للتساؤل عن الأسباب التي من أجلها نولد ونعيش ونموت، ذلك هو التناقض الذي وقعت فيه هذه الحضارة التي ارتأت منذ نشأتها أن تكون إنسانية، بمعنى أنها جعلت من الإنسان مصدر كل شيء ونهايته، إن هذه الحضارة التي أريد أن تكون إنسانية، إنما تقود في الوقت نفسه إلى نظام يحتقر الإنسان ويخدعه، ثم يدمره في نهاية المطاف.

إن الإسلام بأبعاده الأفقية والرأسية قادر على عمل توافقٍ قوي بين الإنسان والكون المحيط به، وكذلك بين الإنسان والله خالق كل شيء ومبدعه، إن الإسلام عالمي بكل معنى الكلمة. (٢)

(١) نقلاً عن المرجع السابق، ص ٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٤، ٦٥.

## ثانياً: الحوار.. والاعتراف بالآخر وحقوقه في الإسلام:

إن القرآن الكريم والسنة الشريفة - وهما وحي الله سبحانه إلى خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله (ﷺ) - حافلان بالنصوص الكريمة التي تحدد علاقة المسلم بالآخرين من غير المسلمين، سواء كانوا يعيشون في داخل المجتمعات الإسلامية - كمواطنين غير المسلمين - أم كانوا خارج المجتمعات الإسلامية، لكنهم يرتبطون بالمسلمين بعلاقة سلام - عهد أمان دولي أو ثنائي - و حتى بعلاقة حرب ومواجهة مباشرة أجل:

ماذا يقول الإسلام - من خلال مصدريه الأصليين - في هذه القضية التي تشغل بال الإنسانية الآن، ويريد بعضهم أن يجعل الصدام الحضاري (أو الشذوذ) القاعدة، بينما يجعل (قاعدة الحوار والتفاعل الحضاريين) هي الشذوذ والاستثناء!!

إن الإسلام يرفض قلب الأوضاع على هذا النحو، وهو يجعل من التعايش السلمي قاعدة الحياة الإنسانية، مع الإيمان الكامل بفطرية الاختلاف وتنوع العقائد، بل ضرورة هذا الاختلاف الإيجابي لاستمرار الحياة وازدهارها إذا ما التزم الناس بضوابط الاختلاف والتنوع وآدابهما، وبالتالي أصبحا سبيل تكامل وثراء وازدهار، وليس سبيل تصادم وقهر وانتحار.

ونحن نلاحظ - في البداية - أن القرآن الكريم يتحدث عن نفسه، على أنه (الحق) الذي جاء مصداقاً (للحق) الموجود في الكتب السماوية الصحيحة السابقة، فهو آخر حلقاتها، وهو المحقق لرسالتها... يقول

اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١).

ويقول أيضاً: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ (٢).

ويقول - أيضاً في خطابه لرسول الله - عليه الصلاة والسلام: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٣) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤) مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (٥).

وفي الموقف الإسلامي الكريم من توراة موسى (عليه السلام) التي أنزلها الله على عبده موسى، والتي قرأها على بني إسرائيل في حياته، وحكم بها هو وأخوه هارون فيهم، ثم تركها بينهم وانتقل إلى الرهيق الأعلى... يقول الله في كتابه الكريم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٦).

وقد امتدح الله توراة موسى في القرآن، وبين أنها كانت تدعو إلى التوحيد الخالص والإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين،

(١) البقرة: ٩١.

(٢) البقرة: ١٠١.

(٣) آل عمران: ٢-٤.

(٤) المائدة: ٤٤.

ومخاطبة الناس - غير الإسرائيليين - بالحسنى وعدم المكر والاستكبار، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (١).

لكن هذه التوراة التي يمدحها الله في القرآن ليست هي التوراة التي عبثت بها أهواء اليهود، والتي يقول الله فيها: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٢).

وقال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (٣).

وقال - عز وجل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤).

(١) البقرة: ٨٢.

(٢) البقرة: ٧٥ - ٧٩.

(٣) المائدة: ١٥.

(٤) المائدة: ١٣.

فالتوراة التي أنزلها الله على موسى، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى - جزء من إيمان المسلمين بالوحي السماوي - ولا يكتمل إيمان المسلم إلا إذا آمن بوحى الله وكتبه التي سبقت القرآن، وقد ورد ذلك إجمالاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

وقد بين الله سبحانه في القرآن الكريم أن المسلمين هم - وحدهم - على ظهر الأرض الذين يؤمنون بكل كتب الله المنزلة.. قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢).

أما محمد نبي الإسلام (ﷺ) فهو - أيضاً - الحلقة الأخيرة في سلسلة واحدة مباركة هي (سلسلة الأنبياء) التي تشبه العقد الواحد؛ والبيت الواحد، بل إن (محمدًا رسول الإسلام) يبين بأسلوب رائع نادر في التواضع الشعور بالتقدير والإجلال لكل الأنبياء السابقين - إنه عليه السلام «لِبَنَةِ» في بناء «النبوة» الكبير... يقول: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا إِلَّا مَوْضِعَ لِبْنَةٍ فِيهِ، فَكَانَ النَّاسُ يَمْرُونَ بِالْبَيْتِ وَيَقُولُونَ: لَوْلَا هَذِهِ اللَّبْنَةُ، فَأَنَا هَذِهِ اللَّبْنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ» (٣).

(١) آل عمران: ٨٤.

(٢) آل عمران: ١١٩.

(٣) رواه مسلم.

وهذا الحديث الشريف - في الحقيقة - لم يكن إلا ترجمة نبوية كريمة للتوجيهات الإلهية الواردة في القرآن، والتي تُؤصل وتؤكد عقيدة أن الأديان السماوية جميعاً إنما جاءت لتبين مكانة الإنسان في الكون، من خلال تعليم الإنسان وتعريفه بمصدر الكون، خالق الكون، وبمصير الكون والإنسان، وبالتالي فإن كل الأديان تقدم - مهما اختلفت في بعض الشرائع والفروع - نظاماً كاملاً للعقيدة والعبادة يعكس (الموقف الديني) الذي يجب أن يتبنّاه الإنسان في تعامله مع الحياة والكون.. ولهذا المعنى المتكامل لم يكن بدعاً أن يركّز القرآن على عقيدة أن رسل الله جميعاً يعزّز بعضهم بعضاً، ويتضامنون في تبليغ حقيقة واحدة، وأن الأنبياء أمة واحدة تحت لواء الله الواحد، وأن هذه الوحدة كانت تجمع الناس فيما مضى، وإنما الأجيال اللاحقة هي التي بذرت الخلاف والفرقة (١) قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (٢).... ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٣).

ويقول: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (٤).

(١) محمد عبد الله دراز : مختصر مدخل إلى القرآن الكريم: ص ٢٥، طبع مصر.

(٢) البقرة: ٢١٣.

(٣) الأنبياء: ٢٥.

(٤) الشورى: ١٣.

ويقول سبحانه وتعالى عند عرضه لقصص عدد من الأنبياء في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (١)، وفي سورة المؤمنون يأتي المعنى نفسه تقريباً: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٢).

ومع هذه الخصائص المتعددة والقسمات الكثيرة التي يؤصلها الإسلام ربطاً بين القرآن والكتب السماوية، وبين محمد والأنبياء السابقين (عليهم جميعاً السلام) لدرجة توجب على المسلم الإيمان بكل الأنبياء إيماناً واحداً وكاملاً، مع هذا كله، فإنه لم تظهر في نصوص الوحي الكريم - قرآنًا أو سنة نبوية - أي إشارة إلى عدم الاعتراف بالآخرين، أو أي إشارة إلى السماح بإكراههم، أو عدم معاملتهم بالحسنى، أو بكل الحقوق الإنسانية، التي هي حق لكل إنسان.. بل إن الإسلام يأمر المسلمين باتِّباع الأوامر التالية التي وردت في القرآن الكريم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (٣)، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ...﴾ إلى نهاية السورة التي تقول للكافرين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٤).. وفي الحوار يقول القرآن: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٥).

ومن المعروف أنه من المقومات الأساس التي يتميز بها المسلمون على غيرهم أن الإيمان في الإسلام لا يكتمل بل لا يُعتدّ به إلا إذا كان إيماناً

(١) الأنبياء: ٩٢.

(٢) المؤمنون: ٥٢.

(٣) البقرة: ٢٥٦.

(٤) سورة الكافرون.

(٥) النحل: ١٢٥.

بالأنبياء جميعاً وبالكتب السماوية الصحيحة كلها، أما غيرهم فيؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض، وبالتالي يؤمنون ببعض الكتاب (الوحي) ويكفرون ببعض، وقد سَمَّاه القرآن كتاباً، على أساس أن الكتب السماوية كتاب واحد تتغير طبعاته وبعض قضاياها لتتلاءم مع التطور البشري في الوعي والتحديات الخارجية))

كما يتميز إيمان المسلمين بأنه يعترف - بل يوجب على أتباعه - حماية المتدينين ورؤساء الأديان من غير المسلمين، وعلى حين تتكرر كل الأديان غيرها، فإن الإسلام يبحث عن (الحكمة) ويبحث عن الأخيار في كل دين من الذين يؤمنون بالوحي كله والأنبياء جميعاً حتى لو أضمرنا دينهم ولم يظهروه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾<sup>(١)</sup> إلى أن يقول فيهم: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً: الطبيعة الإنسانية الدولية للمبادئ الإسلامية؛

اللَّهُ في الإسلام رب العالمين، والرسول محمد آخر حلقات سلسلة النبوة، وقد أرسله الله رحمة للعالمين.

وتعاليم الإسلام - عقيدة وشريعة وأخلاقاً - ذات بنية إنسانية عالمية.. وبإيجاز. يمكن الإشارة إلى الطبيعة الدولية في الإسلام من خلال الخصائص والسمات الإسلامية الآتية:

(١) آل عمران: ١١٣.

(٢) آل عمران: ١١٥.

### آ - عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها:

لما كانت دعوة الإسلام عالمية لم تأت منذ البداية لمخاطبة بلد بعينه، أو قوم بعينهم، فإنها كانت خطوة إنسانية تقدمية إلى الأمام نحو تحقيق ما بذلت المحاولات البشرية لتحقيقه من بعد، وهو تدويل المجتمع الإنساني، بيد أن الدعوة الإسلامية - مع دعوتها للعالمية والتدويل - لم تسمح بالقضاء على الخصوصيات، أو مصادرة حقوق الحضارات الأخرى في التعبير عن نفسها.

### ب - الأخوة الإنسانية:

ويكفي لإيضاح هذه الأخوة من نصوص القرآن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١).

### ج - خلق الناس جميعاً من نفس واحدة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢).

### د - الإنسانية في الإسلام جماعة واحدة:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً﴾ (٣)، ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤).

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) النساء: ١.

(٣) البقرة: ٢١٣.

(٤) يونس: ١٩.

هـ - اختلاف اللون واللسان آية ربانية لاتفرقة عنصرية:  
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ الْأَلْسِنَتَكُمْ وَاللَّوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

و - العمل الصالح ميزان التفاضل بين المجتمع:  
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ  
يَحْزَنُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ز - فريضة الحج عبادة إنسانية دولية:  
وذلك أنها عبادة يلتقي عندها كل المسلمين من مشارق الأرض  
ومغاربها بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم وأوضاعهم الاقتصادية  
والاجتماعية، فهذه الفريضة تتميز بالأخوة الدولية، ولعله لا يوجد ملتقى  
في عالم اليوم يحطم حواجز العنصريات والجغرافيا، يلتقي على  
(الأخوة الدولية الإسلامية) مثل الملتقى الذي تؤدي فيه مناسك الحج في  
مكان محدود وزمان محدد، ووفق قيم محددة شكلاً ومضموناً يلتزم بها  
الجميع.. وإلا فسدت عبادتهم.

#### رابعاً: شهادة عالمية بحقوق الإنسان في الإسلام

في صفر ١٣٩٢هـ (مارس ١٩٧٢م) عقدت في الرياض، ثم في  
باريس والفاثيكان ومجلس الكنائس العالمي في جنيف والمجلس الأوروبي

(١) الروم: ٢٢.

(٢) البقرة: ٦٢.

في ستراسبورغ ندوات علمية بين فريق رسمي من كبار رجال الفقه في المملكة العربية السعودية، وفريق من كبار رجال الفكر والقانون في أوروبا.. وقد انتهت الندوات باعتراف صريح من الفريق الأوروبي بسمو حقوق الإنسان في الإسلام وسبقها على كل القوانين المعاصرة وشمولها، وقد انتهت الندوة بمذكرة رسمية قدمت للمؤتمرين، كما قدم مضمونها قبل ذلك لقسم حقوق الإنسان بالأمم المتحدة في يونيو ١٩٧٠م مشفوعاً بملاحظات حكومة المملكة العربية السعودية على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

وحقوق الإنسان الأساسية في الإسلام - كما أجملتها المذكرة تتلخص في الحقوق الآتية:

١ - «كرامة الإنسان» عملاً بنص القرآن الكريم الذي قد جاء فيه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (١).

٢ - عدم التمييز في الكرامة وفي الحقوق الأساسية ما بين إنسان وآخر، بسبب العرق أو الجنس أو النسب، أو المال، عملاً بما جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ (٢).

٣ - «النداء بوحدة الأسرة الإنسانية والإعلان بأن خير بني الإنسان عند الله هو أكثرهم نفعاً لهذه الأسرة» عملاً بقول رسول الإسلام (ﷺ) «الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ».

٤ - الدعوة إلى التعاون بين الشعوب على ما فيه الخير وتقديم أنواع

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) الحجرات: ١٢.

البر إلى جميع بني الإنسان دون النظر إلى جنسيتهم أو دينهم، عملاً بما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (١).

٥ - «حرية الإنسان في عقيدته وعدم جواز ممارسة الإكراه فيها» عملاً بما جاء في القرآن الكريم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (٢).

٦ - «حرمة العدوان على مال الإنسان ودمه»، عملاً بقول رسول الإسلام: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ» (في خطبة الوداع).

٧ - «حصانة البيت لحماية حرية الإنسان» عملاً بما جاء في القرآن الكريم: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ (٣).

٨ - التكافل فيما بين أبناء المجتمع والاعتراف بحق كل إنسان في الحياة الكريمة والتحرر من الحاجة والفقر، بفرض حق معلوم في أموال القادرين ليصرف لذوي الحاجة على اختلاف حاجاتهم عملاً بما جاء في القرآن الكريم، ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (٤).

٩ - «إيجاب العلم على كل مسلم» من أجل القضاء على الجهل عملاً بقول رسول الإسلام: «طَلِبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ».

١٠ - «إمكان فرض العقوبة على الممتنعين عن واجب التعلم والتعليم»، وهذا ما لم تصل إليه حقوق الإنسان في أي دولة حتى اليوم، وذلك نتيجة لفرض التعليم على كل مسلم.

(١) الحجرات: ١٣

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) التور: ٢٧.

(٤) المعارج: ٢٤-٢٥.

١١ - «فرض الحَجَر الصحي» في حالات الأمراض المعدية، ومنذ أربعة عشر قرناً وقبل أن تنتبه أي دولة حينذاك لإدخاله في تشريعها، وذلك مبالغة من الإسلام في حماية الصحة العامة من المرض، إلى جانب حماية المجتمع من الفقر والجهل.

١٢ - وهناك كثير من النصوص التشريعية الإسلامية التي لا تُحصى لحماية هذه الحقوق التي أشرنا إليها أعلاه، وهي في مجملها تشرح (حقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من مستوى آفاقها الإنسانية العليا التي لا تميز - ولا تسمح أن يميز فيها - ما بين إنسان وآخر، وخاصة بسبب الأمور التي نص عليها (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) وهي: «الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين أو الرأي أو الأصل الوطني والاجتماعي أو الثروة أو البلد».

١٣ - أعلن الإسلام أن النساء شقائق الرجال، وأن لهن من الحقوق مثل ما عليهن من الحقوق إلا ما جعل للرجال من حق في رئاسة الأسرة وتحمل مسؤوليتها، لما بُني عليه تكوين الرجال من خصائص تجعلهم في الأصل أرجح في حمل هذه المسؤولية الاجتماعية الثقيلة.

## بين الطبيعة الإنسانية الإسلامية والطبيعة الصهيونية والصليبية:

إذا كنا قد أشرنا إلى الحقوق الإنسانية في الإسلام - كما رأينا - فإننا نعجب في المقابل من الحقوق الإنسانية في اليهودية كما يصورها العهد القديم والتلمود والبروتوكولات!!.

والأعجب من ذلك تأثر الحضارة الأوروبية بهذه القيم اليهودية، فالحقوق الإنسانية لغير اليهود لا وجود لها، والحروب التي تخضع في الإسلام لآداب صارمة تتلخص في أوامر الخليفة الراشدي الأول أبي بكر الصديق لقائده (يزيد بن أبي سفيان) التي ألمحنا إليها سابقاً، والتي لم نذكر منها إلا ما يتصل بحماية الرهبان ورجال الدين في أماكن عبادتهم، وتركنا أوامر عشرة أخرى أمر بها أبو بكر الصديق وهي أمره لقائده ولقائده جميعاً: (لا تقتلوا امرأة، ولا صبياً، ولا بعيراً إلا للمأكلة، ولا تحرقنَّ نخلًا، ولا تفرقنَّه، ولا تغلل، ولا تجبن). هذه الوصايا - الأوامر - لا وجود لها ولا لقريب منها، ولا لروحها في العهد القديم، بل تجد نفسك أمام حروب إبادة لعلها هي التي فرضت روحها على حروب الإبادة العنصرية والدينية المعاصرة..

إن التوراة المعدلة (المحرفة) التي بأيدي اليهود تحت اليهود على إعلان حرب عالمية دائمة مستمرة - مباشرة وغير مباشرة - ضد البشرية... ومما ورد في هذه التوراة - مما يعكس نظرة اليهود للحرب - قول التوراة لليهود:

«إن الأرض التي تدخلون لتملكوها هي أرض متنجسة بنجاسة شعوب الأراضي برجاستهم، التي ملؤها من جهة إلى جهة بنجاستهم، والآن فلا تعطوا بَنَاتِكُمْ لبنينهم، ولا تأخذوا بناتهم لبنينكم، ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم إلى الأبد لكي تتشددوا وتأكلا خير الأرض، وتورثوا بنيكم إياهم إلى الأبد»<sup>(١)</sup>.

(١) سفر عزرا: الإصحاح (١١/٩ - ١٣).

وقولها أيضاً لهم:

«متى أتى بك الربُّ إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرده شعوباً كثيرة من أمامك.. لا تُعط لابنه، وبنته لا تأخذ لابنك» (١).

وكان من نتائج تمسك اليهود بهذه التعليمات الدينية أن وضعوا قوانينهم ونظمهم ومعاملاتهم ونظرتهم السياسية على التفرقة بينهم وبين سائر البشر في كل شيء، كما عמדوا إلى تاريخ بني آدم يشوهونه ويلوثونه ويبرئون أنفسهم من العيوب والنقائص، وأعطوا لأنفسهم حق استبعاد الآخرين وإبادتهم.

وقد حددت التوراة صور الإبادة الجماعية في الحروب في ثلاث صور هي:

### ١ - إبادة المدن المرتدة التي يتأكد اليهود أنها تعبد آلهة أخرى لم يعرفها اليهود:

فقد ورد في سفر التثنية الأمر بإبادتها «فضرباً تضربُ سكان تلك المدينة بحد السيف، وتحرمها (تذبحها) بكل ما فيها من بهائمها بحد السيف، تجمع كل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلاً إلى الأبد لا تُبنى بعد، ولا يلتصق بيدك شيء من المحرم، لكي يراجع الربُّ من حمو غضبه ويُعطيك رحمة، يرحمك ويكثرك كما حلف لآبائك» (٢).

(١) سفر التثنية، الإصحاح (١٢/٧ - ١٤-١٢).

(٢) سفر يشوع: الإصحاح (١/٨ - ٢٨) في ذلك كذلك، الإصحاح (١٠/١٦ - ٤٣)، (١٢/١ - ٢٤)،

وسفر القضاة، الإصحاح (١/٣ - ١٨)، والإصحاح (٨/٦ - ٦)، وسفر صموئيل الثاني، الإصحاح

(١٢/٢٩ - ٢١)، وأخبار الأيام الثاني، الإصحاح (٢٥/١٢-١١).

## ٢ - إبادة المدن المحاربة التي لم تسلم نفسها:

فقد جاء في سفر التثنية أن المدن التي لم تسألك بل عملت معك حرياً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف... هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا...» (١).

## ٣ - إبادة مدن معينة حددها الله في التوراة وتستحق الإبادة:

وقد حددها سفر التثنية في قوله: «متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها، وطرد شعوباً كثيرة من أمامك، الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والقرزيين والحويين واليبوسيين، سبع شعوب أكثر وأعظم منك، ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تُحرّمهم، لا تقطع لهم عهداً، ولا ترفق بهم، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم، فلا تزوجوا بناتكم من أبنائهم، ولا أبناءكم من بناتهم، إذ يُغَوون أبناءكم عن عبادتي ليعبدوا آلهة أخرى، فيحتدم غضب الرب عليكم ويهلككم سريعاً، ولكن هذا ما تفعلونه بهم، اهدموا مذابحهم وحطموا أصنامهم وقطعوا سواربهم وأحرقوا تماثيلهم» (٢).

إن النبي يشوع الذي جاء بعد موسى (عليهما السلام) تصوره التوراة وكأنه سفاح لا نبي، فعندما يدخل مدينة أريحا يأمر بقتل كل الناس إلا الزانية التي سترت جواسيسه في بيتها، ثم يأمر بإحراق المدينة..

(١) سفر التثنية: الإصحاح العشرون.

(٢) سفر التثنية: الإصحاح (٧-١٧).

ويقول العهد القديم عن يشوع وجيشه:

«وحرموا (أي أبادوا) كل ما في المدينة من رجل وامرأة، طفل وشيخ، وحتى البقر والغنم والحمير بحد السيف /أي اقتلوا الجميع/»

يقول العهد القديم أيضاً: إن يشوع أصدر أمره قائلاً:

«وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد، اجعلوها في خزانة بيت الرب. واستحيا يشوع (أي استثنى وعفا) راحاب الزانية وبيت أبيها وكل ما بها وسكنت وسط إسرائيل إلى هذا اليوم؛ لأنها خبأت المرسلين اللذين أرسلهما يشوع لكي يتجسسا أريحا»<sup>(١)</sup>.. (فالقائمة الزانية - وحدها - هي التي استحققت الحياة، مكافأة على خيانتها)!!.

وفي صورة دموية أخرى يقول العهد القديم مصوراً الهجوم على مدينة (عاي): «فقال الرب ليشوع: لا تخف ولا ترعب، خذ معك جميع رجال الحرب وقم اصعد إلى عاي.

انظر قد دفعت بيدك ملك عاي وشعبه ومدينته وأرضه. فتفضل بعاي وملكها كما فعلت بأريحا وملكها. غير أن غنيمتها وبهائمهات تتهبونها لنفوسكم...»<sup>(٢)</sup> فهنا في (عاي) استثنت الحيوانات التي لم تستثن في أريحا (وربما تكون لحيوانات أريحا ذنوب لا نعلمها...) وضربهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت، وأما ملك عاي فامسكوه حياً وتقدموا به

(١) سفر يشوع\* الإصحاح السادس.

(٢) سفر يشوع: الإصحاح الثامن.

إلى يشوع. وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعاً بحد السيف حتى فنوا، إن جميع إسرائيل رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف، فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً جميع أهل عاي... ويشوع لم يرد يده التي مدها بالميزراق حتى حرم (أي أباد) سكان عاي، لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذي أمر به يشوع.

وأحرق يشوع عاي وجعلها تلاً أبدياً خراباً إلى هذا اليوم، وملك عاي علّقه على الخشبة إلى وقت المساء، وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثته من على الخشبة وطرحوها عند مدخل المدينة، وأقاموا عليها رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم<sup>(١)</sup>.

وفي الإصحاح العاشر من سفر يشوع؛ نجد سلسلة من هذه الإبادات الجماعية تقول التوراة:

وأخذ يشوع «مقيدة» في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرّم «قتل» ملكها وكل نفس بها لم يبق شاربداً، وفعل بملك «مقيدة» كما فعل بملك «أريحا»، ثم اجتاز يشوع مقيدة وكلّ إسرائيل معه إلى «لينة» فدفعها الرب هي أيضاً بيد إسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكلّ نفس بها لم يبق شاربداً وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا، ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لينة إلى لحنيش، ونزل عليها وحاربها وضربها بحد السيف وكلّ نفس بها حسب كل ما فعل بلينة..

(١) سفر يشوع: الإصحاح الثامن.

«ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لحنيش إلى عجلون فنزلوا عليها وحاربوها وضربوها بحد السيف وحرم عليها كل نفس بها في ذلك اليوم حسب كل ما فعل بلحنيش، ثم صعد إلى حبرون «الخليل» وأخذوها وضربوها بحد السيف مع ملكها وكل منها وكل نفس بها، لم يُبق شاردأ حسب كل ما فعل بعجلون فحرمها وكل نفس بها، وضرب يشوع كل أرض الجبل والسهل والسفوح وكل سلوكها لم يبق شاردأ، بل حرم وقتل كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل فضربهم يشوع من قادس بريئ إلى غزة وجميع أرض جوشن إلى جعبون»<sup>(١)</sup>.

إنها حرب إبادة لا تبقي ولا تذر...!

وفي الأسفار الخمسة الأولى المجمع على أنها من التوراة عند السامريين والعبرانيين معاً، نجد الاتجاه الدموي مسيطراً بحيث يمكننا القول: إن ظاهرة العنف تدخل في صميم نسيج التوراة وفي كل أسفارها بدرجات متفاوتة؛ ففي سفر التكوين - أول أسفار التوراة - يرد ما يأتي:

«ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل»<sup>(٢)</sup>.. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك إهلك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريماً»<sup>(٣)</sup> (أي تبدها تماماً).

والسؤال الذي نتوجه به هنا: ما ذنب الأطفال والنساء وغير المحاربين في هذه الإبادة الجماعية؟

(١) سفر يشوع: الإصحاح العاشر.

(٢) التكوين الإصحاح السابع والعشرون.

(٣) سفر التثنية: الإصحاح العشرون.

لكن الإجابة عن هذا التساؤل تأتي من التوراة نفسها - توراة ما بعد السبي البابلي وحزقيال ونحميا وعزرا... إن هذه التوراة أباحت إبادة كل حي، وقطع كل شجر أخضر، وحرق كل ما يمكن الانتفاع به، بل جعلتها فرائض وأحكاماً وقوانين..

وقد ورد في سفر التثنية: (هذه هي الفرائض والأحكام التي تحفظون لتعملوها في الأرض التي أعطاك الرب إله آبائك لتمتلكها كل الأيام التي تحيون على الأرض، تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة، وعلى التلال، وتحت كل شجرة خضراء وتهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتحرقون سواريتهم بالنار وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان، لا تفعلوا هذا للرب إلهكم، بل المكان الذي يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سكناه تطلبون، وإلى هناك تأتون وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم وعشوركم ووقائع أيديكم ونذوركم ونوافلكم، وأبكار بقركم وغنمكم، وتأكلون هناك أمام الرب إلهكم وتفرحون بكل ما تمتد إليه أيديكم أنتم وبيوتكم كما بارككم الرب إلهكم»<sup>(١)</sup>.

أجل: هكذا يفرح اليهود على أشلاء الناس وبقاياهم وجماجمهم!!!  
وتعليقاً على هذه الإبادات الجماعية يعترف أحد أصحاب الضمائر من اليهود على بني جنسه قائلاً:

نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسيديه ومحركي الفتن فيه وجلاديه<sup>(٢)</sup>.

(١) - سفر التثنية ، الإصحاح ( ١٢ / ١ - ٧ ) .

(٢) محمد التونسي: الخطر اليهودي، مرجع سابق (المقدمة).

والدكتور (ليفي) لم يقل هذا اعتماداً على ما جاء في العهد القديم فقط، بل اعتماداً على وقائع التاريخ كله، وعلى وقائع تاريخ اليهود في فلسطين من سنة ١٩٤٧ - وما قبلها - حتى اليوم.

وفي العدوان الثلاثي على مصر. عام ١٩٥٦م ، حيث كانوا مضرب الأمثال في الوحشية والفتك، وفي مذابح دير ياسين والخليل ورام الله وغزة وغيرها من مدن فلسطين، وفي جنوب لبنان، ومع الانتفاضة التي بدأت في سبتمبر سنة ٢٠٠٠ م والتي راح ضحيتها آلاف الشهداء والجرحى والمعوقين ممن سقطوا من أبناء الشعب الفلسطيني.

### مقارنة بين الحروب اليهودية والإسلامية:

إن الروح اليهودية هنا لا علاقة لها بالحروب في الإسلام، ولعلنا عندما نتتبع حروب أنبياء بني إسرائيل - عليهم السلام - من أمثال يشوع وداود وسليمان، نعرف كيف أن رجالاً من أمثال بن جوريون، ونتياهو وشارون يتعاملون مع الفلسطينيين بهذه الإبادة الجماعية، وبهذه الأساليب غير الإنسانية.. إنما يتمثلون ذلك الذي جاء في التوراة ويرون أن الحقوق الإنسانية محصورة في اليهود وحدهم.

لكن الروح العسكرية الإسلامية تختلف تماماً عن هذه الروح التي يبثها العهد القديم عبر العصور، حتى انتهت بالبشرية إلى إنتاج أسلحة الدمار الشامل والحروب العالمية (هيروشيما وناغازاكي) التي أتت فيها القنابل الذرية على الأخضر واليابس والطفل والشيخ..

إن رسول الإسلام محمداً (وعلى خطاه مضت الفتوح الإسلامية حتى صلاح الدين الأيوبي) كان يوصي الجيوش بالألا يقتلوا إلا بعد أن

يدعوا أعداءهم إلى الإسلام أو إبرام معاهدة سلام وعدم اعتداء، ثم عليهم أن يحرموا أنفسهم وهم مستقلون في ذلك، أما إذا أرادوا أن يحميهم المسلمون - كشرط من شروط معاهدة السلام - فإن عليهم أن يدفعوا «الجزية» بدلاً من (الدفاع عنهم) ولهم أن يطلبوا في أي وقت إسقاط الجزية والدفاع - بالتالي - عن أنفسهم، فالجزية ليست إلا (بدل تجنيد في الجيش - فدية جنديّة) .. ومن وصايا الرسول الخطيرة التي لا وجود لمثلها في الأعراف والقوانين العسكرية، قوله لمعاذ بن جبل، وعلي بن أبي طالب - في وصيتين متقاربتين اللفظ والمعنى:

« لا تقتاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبوا فلا تقتاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإن بدؤوكم فلا تقتاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً، ثم أروهم ذلك القتل وقولوا لهم: هل إلى خير من هذا سبيل؟ فلأن يهدي الله على يدك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت» (١).

ويقول النبي محمد (ﷺ) في وصية عامة موجهة لجميع جيوشه: «تآلفوا الناسَ وتأثروا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل مدَرٍ ووبرٍ إلا أن تأتوني بهم مسلمين أحب إليَّ من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم».

ويعلق على هذه الوصية الدكتور (علي عبد الواحد وافي) قائلاً: إنه بهذه الإجراءات الكريمة وما إليها يدل الإسلام على شدة حرصه على حقن الدماء وإيثار السلم، وينأى بالمسلمين عن جميع مظان الغدر والخيانة وأخذ الأعداء على غرة، فيقي الناس ويلات الحروب، وما

(١) المبسوط، الجزء الأول، ص ٢١، نقلاً عن (د/علي عبد الواحد وافي: حماية الإسلام للأنفس والأعراض، ص ٤٠، طبعة ١٤٠٣ هـ، عكاظ، السعودية ١٩٨٨م).

ينجم عنها من نقص في الأنفس والأموال والثمرات، أو يخفف ما استطاع من هذه الويلات (١).

ولقد كان من نتائج تعاليم الإسلام وآدابه في الحروب أنه بينما دفع الغالب والمغلوب في الحريين العالمين (١٩١٤ م)، (١٩٣٥ م) ثمناً باهظاً، فوقع نحو (١٦٧ مليوناً) بين قتيل وجريح ميئوس من شفائه، بينما لم يزد كل ضحايا غزوات الرسول (ﷺ) وحروبه ضد الشرك واليهود على عهد الرسول (ﷺ) عن (٢٨٦) شخصاً من الفريقين (المؤمن والكافر) و(الغالب والمغلوب) وذلك خلال ثلاثة عشر عاماً، وخلال أكثر من ستين غزوة وسرية..

وهذا باستثناء الخونة خيانة عظمى من الذين قتلوا لخيانتهم للشريعة (للدستور والقانون الإسلامي) من أمثال بني قريظة. (وهذا القتل هو عقوبتهم في كل القوانين الدولية!).

ولعل أدنى مقارنة بين الطرفين تكشف حقيقة الوحشية الأوروبية في الحروب وتكشف الحقيقة الإنسانية للإسلام في حروبه وفي سلمه..

ولئن كانت الحضارة الأوروبية والمنظمات الدولية قد انتهت إلى تقرير بعض الحقوق الخاصة بالجرحى وموتى الحروب، مع أنها هي التي اخترعت الحروب العالمية.. كما أنها هي التي اخترعت أسلحة الدمار الشامل..

لئن كان الأمر كذلك فإن مما لا شك فيه عندنا أن الروح الإسلامية الحضارية التي أثرت في أوروبا قديماً وحديثاً، وزرعت فيها أخلاق

(١) انظر علي عبد الواحد: المرجع السابق، ص ٤١.

الفروسية، ونشرت بينها المستشفيات (البيمارستانات) وكتب الطب، وأخلاق الطبيب، وإنسانيات الطب، كلها قد أثرت في التقدم البشري الذي انتهى إلى هذا المستوى الذي أُلحنا إليه.

لقد سبق الإسلام كل القوانين الدولية في حماية كرامة الإنسان، مسالماً أو محارباً، وبتأثير من التعاليم الإسلامية استطاعت البشرية أن تصل إلى تقعيدٍ (قانوني ونظري) (١) لحقوق الموتى والجرحى والمرضى - من الأعداء في الحروب - (ويجب أن يعرف أن كل ما تصل إليه البشرية في هذا المجال الخَيْرُ يقرّه الفقه الإسلامي الدولي).

وقد عقدت أخيراً اتفاقية عامة لتحسين حالة جرحى الحرب هي اتفاقية (جنيف المبرمة سنة ١٨٦٤) والمعدلة بمعاهدة ١٩٠٦ ثم باتفاقية (٢٧ يوليو سنة ١٩٢٩) وأخيراً باتفاقية (١٢ اغسطس سنة ١٩٤٩).

وقد أقرت هذه الاتفاقية مبدأ حماية الجرحى والمرضى الذين يصابون في ميدان القتال، وفرضت على قوات الدولة التي تسيطر على ميدان المعركة البحث عنهم وحمايتهم من أي اعتداء أو معاملة سيئة، كما فرضت على الفريقين المتحاربين الاتفاق على وقف القتال الوقت الكافي لنقل الجرحى الموجودين في الميدان بين الخطوط - بقدر ما تسمح به الظروف الحربية.

ولسنا مبالغين إذا عزونا هذا التطور لتعاليم الإسلام، بل إننا صادقون كل الصدق حينما نقول: إن الإسلام كان أسبق من هذه القوانين من الناحية النظرية، وكان أصدق - الصدق كله - في الناحية العملية والتطبيقية التي تتقص الحضارة الحديثة.. حضارة الشعارات والنظريات..

أما الإسلام فهو حضارة القول والفعل: وصدق الله في كتابه الكريم ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (١).

**تأثر الفكر الأوروبي باليهودية والعداء الثابت للآخر (المسلم):**  
لقد ظل الفكر الأوروبي يمشي بعيداً عن الرؤية المنصفة المرنة المتفتحة على الإنسان الآخر، إلى أن أصبحت (صورة الآخر) صورة نمطية يتعامل الغرب بها - بوحشية - مع كل من يختلفون معه سياسياً أو فكرياً أو دينياً... وكل هذا بسبب خضوعه لمصادر الفكر اليهودي والصهيوني.

وقد ورثت هذا التمييز قوافل المستشرقين، وكان عليها تطوير صورة العدو - من خلال الفهم العميق لشخصه والعمل على تحقيق الأهداف المسبقة.

ومع ظهور القرن التاسع عشر الميلادي أصبح الشعور بالتفوق الأوروبي مهيمناً، بما يتسم به من الواقعية المصلحية (البراغماتية) و(الإمبريالية) والازدراء التام لكل الحضارات الأخرى، فقد ذهبت أوروبا إلى أن كل مقاومة لهيمنتها تمثل مؤامرة شريرة مستوحاة من روح حاكمة (٢).

فالمستشرقون، ورجال السياسة، ورجال الإعلام والاستخبارات يعملون جميعاً.. لأهداف مشتركة - هي تثبيت صورة الآخر العدو، ويساعدهم في تحقيق أهدافهم المتحمسون الدينيون الذين يسخرون

(١) الصف: ٢.

(٢) مجموعة أبحاث صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه - مركز دراسات الوحدة العربية ص ٦١ مقال (فيلهو هازلي) نشر بيروت.

الموروث الديني والتاريخي لتثبيت صورة الآخر العدو، ولهذا يرى «إدوارد مورتيمر» أن الميراث المسيحي «يظل عنصراً رئيساً في الهوية الأوروبية، بمعنى أن تعريف الآخر (العدو أو الصديق) لا يزال أسيراً لعبارات دينية، حتى لو جرى التعبير عنها باللغة العلمانية التي تستخدم مصطلحي (ديمقراطية) و (طغيان)... فالصورة المؤطرة والجاهزة تختلف أشكال التعبير عنها لكنها واحدة، بل إن الميل إلى تثبيت صورة العربي والمسلم ميلٌ مستمر ينحدر إلى الثبات في الكتب والمناهج المدرسية في البلاد الأوروبية والأمريكية، وهي صورة مزمنة، للمستشرقين الدور العلمي الأساسي في إبرازها، وهي - كما نرى - صورة تقوم على ضمنية المجابهة العدائية التاريخية، وعلى ثنائية التعارض بين ثقافتين<sup>(١)</sup>.

وجدير بالذكر أن الاستشراق هو - باختصار - المعرفة التي أنتجها الغرب عن «الشرق» عن شعوبه وثقافته، أو بعبارة أخرى هو «الشرق» كما يراه الأوروبيون، أو كما هو متجسد في الخيال الغربي، ويمكننا أيضاً القول: إن الاستشراق هو الشرق كما ينبغي له أن يكون في نظر أوروبا - كعدو ثابت - وليس كما هو كائن بالفعل وفي الواقع<sup>(٢)</sup>.

فالشرق في إطار هذه الصورة (الاستشراقية) استبدادي لا يعرف ولم يعرف الديمقراطية أو الشورى، ولم يعرف كيف يحكم نفسه بنفسه، كما أنه يعاني من الدونية في مواجهة التفوق الغربي، ومختلف في كل شيء عن الغرب.

(١) صورة الآخر العربي: (مرجع سابق)، ص ٢٠ - ٣١.

(٢) مجلة العربي العدد ٥٢٩، ١٤٢٣ هـ، مقال (أوروبا الاستعمارية كيف رأت الآخرة) للدكتور عبد العليم محمد، ص ٢٧.

وهذه النظرية الأوروبية الاستعمارية التي تركز على القوة والمعرفة تستهدف تسويق السيطرة على الشرق وتبرير المؤسسة الاستعمارية وممارستها في الواقع - كما قدمها الساسة والمستشرقون والاستخباريون - وهي مقدمة للسيطرة عليهم وفرض الاحتلال والاستعمار، ففي خطاب آرثر جيمس بلفور في ١٢ يونيو عام ١٩١٠، برّر احتلال إنجلترا لمصر بمعرفة الإنجليز بمصر وأحوالها وتاريخها وحضارتها. ذلك أن المعرفة في إطار نظرة بلفور هي عبء الانتقال من المحلي إلى العالمي، والخروج من الأول إلى أفق السيطرة الكونية.. ولهذا فهم يريدون تحت مظلة حقوق الملكية الفكرية حرمان العالم من المعرفة، وهذا النمط من العلاقة لا يقتصر فقط على بلفور وإنما يمتد ليشمل رجال الإدارة الاستعمارية، فنظرتهم تتأسس على الاستعلاء والتفوق وتتغلّف بمسوح كونية (عولمية)، مهمة الرجل الأبيض في العالم غير الأوروبي، رسالة الحضارة الأوروبية في العالم، أي فرضه الأوربة أو الأمركة على العالم<sup>(١)</sup>.

وتضاف أسطورة «التهديد الخارجي» إلى مجموعة العوامل المحركة لتثبيت هذه الصورة للآخر (العدو)، وبالتالي، فلم تعد المناهج العلمية، وأساليب التفاهم والتعارف، أو التجربة الشخصية هي المصادر الأساسية لمعرفة «الآخر» كما كانت في المجتمعات التقليدية. لقد تعددت وسائط هذه المعرفة، كما اتسعت سوق بيع الصور والأحكام المسبقة، ومن أكثر هذه الصور مقاومة ورواجاً هي - كما ألمحنا - صورة

(١) مجلة العربي: (مرجع سابق)، ص ٢٨.

التهديد<sup>(١)</sup>... حتى ولو كان التهديد المزعوم منسوباً إلى «الآخر» الذي هو أضعف مائة مرة.. من «الأنا» الأوروبي والأمريكي!!.

ومع أن فرنسا قد احتلت بلاداً عربية كثيرة، ومع أن ثورتها التحريرية قامت على شعارات (المساواة والإخاء والحرية)، ومع أنها تركت في الجزائر خلال ثماني سنوات هي سنوات الثورة مليوناً ونصف مليون شهيد وقتيل.. إلا أن (العربي) لديها - كذلك - هو العدو لآخر الثابت..!! ولقد وجد الفرنسيون كما يقول شارفان أستاذ القانون الفرنسي في العربي «العدو الأمثل» بعد أن أحدث غياب الشيوعية خطراً على الإجماع الذي كان قائماً إزاءها.

ومما هيأ العربي للعداوة أنه ذو سمات بارزة، علنية، وأيسر تمييزاً من غيره، وهو - أيضاً - يجمع بين مواصفات كبش الفداء.... إنه يلبي حاجة الفرنسيين إلى العثور على الذات وإلى فهم مساوئ الأزمة دون عناء، وهناك أزمة مجتمع في فرنسا تحتاج إلى تحميل المهاجر العربي بعض أسبابها.

وما يقوله (شارفان) - أستاذ القانون الفرنسي - ينطبق - بدرجات متفاوتة - على كثير من الدول الأوروبية والدائرة في فلكها.. فالآخر «العدو» (العربي) مطلوب لأغراض محلية.. وسياسية.. واقتصادية... ودينية - أيضاً.

وهكذا تقف أوروبا منطوية على نفسها، متدثرة (بالأنا) ومتدثرة - بالدرجة نفسها - (بالآخر العدو) الذي يمنحها (وجوده الأسطوري)

(١) مجلة العربي: (مرجع سابق)، ص ٢٨.

حركة دائمة، وسعيًا للتفوق والهيمنة، واستغلالاً يعتمد على (شرعية أوروبية عنصرية) لشعوب العالم..

ومن وراء أوروبا تراث أمريكا هذه (الأيديولوجية الأسطورية) التي لم تمرّ بتجاربها التاريخية.. لكنها - كعنصر في البيت الحضاري الأوروبي - تؤمن بأن القيادة قد آلت إليها، وعليها - بدون تفكير متعقل، بل وبضغط من قوى الصهيونية أن تعمل على إثبات وتأكيد أيديولوجية (الأنا) الرافض (لآخر العدو) والمتريص دائماً، والعامل على إزالته.. بأعنف ما عرف تاريخ الحضارات من عنف ودموية وخروج على أبسط قواعد الأديان والقوانين والأخلاق.



\* والسؤال - أخيراً:

تُرى أيهما - الإسلام أم الحضارة الأوروبية - أهدى سبيلاً؟..

وأيهما يدعو للحوار والعدل والتسامح والرحمة؟...

وأيهما يجعل للحروب ومنطق القوة حدوداً إنسانية وقواعد

أخلاقية؟..

وأيهما يسعى للإباد وفرض الهيمنة وتثبيت العداء وتقنية وجعله

ديناً، بل وجعله القاعدة لا الشذوذ؟..

\* والإجابات وردت في ثنايا البحث.. والمسلمون والأوروبيون يعرفونها.. لكن

الخضوع الأوروبي الأمريكي لمصادر الفكر اليهودي، ولمنطق المادة والمصلحة

الدنيوية يقف وراء هذا الظلم الثابت الذي لا نملك معه إلا أن نقول:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾<sup>(١)</sup>

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) الفجر: ١٤.

(٢) الأنعام: ١٢٢.

(٣) إبراهيم: ٤٢.

(٤) القصص: ٨٣.



## **ثالثاً**

**فتنة احتكار الولاء لآل البيت**

**بين التوظيف الشعبي وإقامة الدول**

**(فتنة تستنزف طاقة الأمة منذ أربعة عشر قرناً)**



في بداية حديثنا نشير إلى حقيقة شائعة في التاريخ كله، وهي أن كثيراً من الدعوات الكريمة تتعرض لمن يتسترون بردائها ويقفون تحت شعاراتها، ليحققوا أغراضهم التي يصعب عليهم تحقيقها وهم عراة مكشوفون واضحون.

وقد تعرضت الأديان نفسها لهذا اللون من النفاق والاختراق، فانضوى تحت لوائها من عمدوا إلى تشويه حقائقها وتأويلها تأويلاً يكدر منابعها ويحقق لهؤلاء المؤولين أهدافهم لدرجة الخروج بالدين عن التصورات الأساسية واتخاذ حقائقه لهواً فكرياً ولعباً مذهبياً.

وفي تاريخنا الإسلامي كان الولاء لآل البيت والتشيع شعوراً فطرياً؛ لأنه جزء من الولاء الإسلامي الذي حث على - بل وفرض - حب النبي وآله وصحابته، في القرآن الكريم والسنة النبوية.

وليس لهذا الحب مذهبية مُعَيَّنَةٌ؛ لأنه - كما ذكرنا - فرضٌ من فروض الإسلام؛ فالمودة في القربى، والحب لآل البيت والصحابه، إنما هما - في الحقيقة - مودةٌ وحبٌ لرسول الله (ﷺ) نفسه، فمن أحبه فحببه أحبه ومن أبغضه فببغضه أبغضهم، كما أشار إلى ذلك الرسول الكريم (١)!!

بيد أن تطورات سياسية وفكرية غير نقية قد مكنت بعض الناس من أن يستغلوا هذا الحب، ويحولوه من مجرد تشيع كريم لآل البيت إلى مستودع

(١) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي (٥)، الدولة المباسية ج١ ط١ المكتب الإسلامي القاهرة

يضعون فيه كل ما يضمرونه لهذا الدين ولهذه الأمة التي كان انتماءؤهم إليه وإليها مجرد نفاق اضطروا إليه لتحقيق مكاسب مصلحة قريبة، ولتحقيق تخريب مستمر ينطلق من داخل البناء الإسلامي نفسه»<sup>(١)</sup>.

ويشير الكاتب الفاضل الأستاذ جعفر الصادق عبد الرزاق (هولندا) في دراسة له حول (منهجية الحوار في الإسلام) إلى هذا اللون من الظلم والتشيع الذي لحق بالتشيع النقي فأفسد عليه مجراه إلى أن تنبه المصلحون الملتزمون الشيعة، ولا سيما في العصر الحديث - فتنبعوا هذه الأفكار الدخيلة على التشيع السنّي والإسلامي الصحيح بالدحض والرد.

يقول الأستاذ الفاضل: إن كتاب (مختصر التحفة الإثني عشرية) الذي ألفه عبد العزيز غلام حكيم الدهلوي الهندي - ذكر في الباب الأول (فرق الشيعة وبيان أحوالهم وكيفية حدوثهم وتعداد مكابدهم) فأورد في هذا الباب ثلاثاً وثلاثين فرقة شيعية، كثير منها لم يسمع بها أحد كالسبئية والمفضلية والسرفية والبزيفية والكاملية والجناحية واليبانية والمنصورية والغرابية والذبابية والدمية والمقنعية، بل وحتى البهائية. وبعضها مجرد رأي أو مقولة منسوبة إلى شخص يدّعي أنه شيعي ليصبح هذا الفرد فرقة شيعية لها أتباع وأنصار ومؤيدون، وأما الآراء التي ينسبها لهذه الفرق المختلفة فهي عقائد غريبة وقبيحة وفيها شرك وغلو تجعل القارئ ينفر من كل ما له صلة بالشيعة»<sup>(٢)</sup>.

(١) محمود شاكر المرجع السابق ص ١٤.

(٢) انظر. مجلة رسالة الثقلين - العدد ٢٢ - السنة التاسعة المحرم ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م ص ١٦٩ . قم - إيران.

وما يقوله الأستاذ جعفر عبد الرازق في نصه السابق يكاد يتفق فيه معه (بطريقة أو رؤية مختلفة لكنها متكاملة) المؤرخ المعروف الأستاذ أحمد أمين، حين يشير إلى مساحة الاستغلال والظلم التي حاقت بالمذهب الشيعي لدرجة تقتضي جهاداً كبيراً من إخواننا الشيعة الصادقين المنتمين إلى كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) في سبيل تخليص «التشيع الحق» من هذا الاستغلال الفاسد الذي قام به كثير من أعداء الإسلام.. يقول الأستاذ أحمد أمين:

«والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكة الإسلام، كل هؤلاء كان يتخذون حب أهل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم، فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة، وقال الشيعة: إن النار محرمة على الشيعي إلا قليلاً كما قال اليهود «لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات»، والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم: «إن نسبة الإمام إلى الله كنسبة المسيح إليه، وقالوا إن اللاهوت اتحد بالناسوت في الإمام، وإن النبوة والرسالة لا تنقطع أبداً، فمن اتحد به اللاهوت فهو نبي.. وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الله، والحلول، ونحو ذلك من الأقوال التي كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة والمجوس من قبل الإسلام<sup>(١)</sup>.



(١) أحمد أمين - فجر الإسلام ص ٢٧٦، ٢٧٧ طبع مصر، وانظر د. أحمد شلبي: الدولة الأموية ص ١٥١، ص ١٠١ - ١٩٩٩ م

وبصرف النظر عن ذلك الخلاف العميق - بل والعقيم أحياناً - الذي يصل إلى حد الرفض الكامل بين السُّنة والشيعة مع أن الطرفين - كما يبدو لي يحاولون استخدام أكبر الطرق العلمية والمنهجية لتأكيد وجهة النظر الخاصة بكل منهما حول شخصية (عبد الله بن سبأ) - وجوداً وعدمًا - من خلال «رسائل دكتوراهات» وبحوث دقيقة (١).

أقول: بصرف النظر عن هذا الخلاف العميق والعقيم إلا أن الحقيقة التاريخية التي لا يستطيع أحد إنكارها - بل ويؤكدُها الشيعة أنفسهم بكل قوة - أن ثمة سيلاً من الأفكار والمذاهب المتطرفة روجها بين المسلمين سبئيون - مهما تكن أسماؤهم المستترة وحقيقتهم الغامضة - لدرجة ظلم معها «التشيع الحق» ظلاً مبيناً، وكادت تتوه خيوط العلاقة الصحيحة التي يجب أن تكون المنهج الصحيح الذي يقبله الإسلام في علاقة المسلم بآل البيت، وفي التعبير عن حبه الصحيح المنضبط بالكتاب والسنة لهم.

وفي الحقل الإسلامي ظهرت مصطلحات تدور على الألسنة تؤكد هذه الحقيقة مثل مصطلحات (الإسرائيليات)، و (غلاة الشيعة)، (مدعي التشيع)، وغيرها.. وهي مصطلحات تؤكد أن هناك من حاولوا توجيه التشيع لمصلحة مذاهبهم وأحقادهم على الإسلام والمسلمين!!.

ولقد أدرك أسلافنا العظماء الذين عمَد غلاة التشيع إلى التمسح بهم خطر هؤلاء وأغراضهم الحقيقية وكيدهم للإسلام، ولم يقصروا

(١) تنظر رسالة ماجستير عنوانها (عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام) للمؤرخ السعودي سليمان بن حميد العودة، نشر دار طبية، الرياض، ط١ ١٤٠٥، وكتاب (عبد الله بن سبأ) للأستاذ مرتضى العسكري، ط٢، ١٣٨١، القاهرة.

في جهادهم، وكان إمام هؤلاء جميعاً الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) نُسب إليه أنه أعدم بعضهم حرقاً.. كما أن محمد بن الحنفية وابنه هاشماً لم ينخدعا بأقوال هؤلاء، وكانت جهودهما سبباً في هزيمة بعض مدعي التشيع مثل المختار وعبد الله بن عمرو بن حرب الكندي، كما أن الإمامين الباقر وجعفر الصادق (رضي الله عن الجميع) وقفا ضد غلاة التشيع مثل أبي منصور العجلي وأبي الجارود وأبي الخطاب - وما كان لمثلهما - في تقواهما - إلا أن يقفا هذا الموقف دفاعاً عن الدين السمح الوسط الصافي عقيدة وشريعة، الذي كان عليه جدهم علي بن أبي طالب (عليه السلام) وإمام الأنبياء محمد (صلى الله عليه وآله).

ولم يقف بلاء هؤلاء الكذابين المتطرفين عند حد المجاهرة بهذه المعتقدات الضالة عن آل البيت، بل زادوا فوضعوا على ألسنتهم كلاماً لا يمكن أن يصدر عن مثلهم في ورعهم وفضلهم (١).

وقد أدرك أئمة آل البيت ذاك فقاوموا ما استطاعوا في حياتهم، لكن بقيت بعد موتهم أقوال أفلتت من رقابتهم وجهودهم ونسبت إليهم زوراً وهم منها براء. يقول الشهرستاني في ذلك: «إن جعفر الصادق تبرأ مما كان ينسبه إليه بعض الغلاة وبرئ منهم ولعنهم، وبرئ من خصائص مذاهب الرافضة وحمافاتهم في القول بالغيبة والرجعة.. لكن الشيعة بعده افترقوا، وانتحل كل منهم مذهباً، وأراد أن يروجه على أصحابه فنسبه إلى جعفر وربطه به، والسيد برئ من ذلك «فبينما يبرأ

(١) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي - ٥ ج ١ الدولة العباسية - المكتب الإسلامي ط ١ القاهرة

جعفر من القول بالغيبة والرجعة، يقول النأووسية وهم من فرق الأمامية: إن الصادق حيٌّ ولن يموت، وسيعود للظهور ويعلو أمره، ويروون عنه أنه قال: لو رأيتم رأسي يدهده عليكم (يدخرج من الجبل) فلا تصدقوا، فإنني صاحبكم صاحب السيف» (١).

وقد نسبوا إلى جعفر أقوالاً لا يمكن أن تصدر عن مثله في دينه وفقهه، مثل نسبتهم إليه أنه القائل: التقية ديني ودين آبائي وأجدادي ومن لا تقية له لا دين له، والقائل: من أطاعنا فقد أطاع الله، ومن عصانا فقد عصى الله، فنحن أبواب الله وحجبه وأمنأؤه على خلقه، وحفظة مكنون سره، والآخذون عهده وميثاقه (٢).

ولهذا الظلم الذي وقع بالتشيع الصحيح، نتفق مع أستاذنا الدكتور أحمد شلبي - رحمه الله - في أنه من الضروري أن تحذف من الشيعة تلك الفرق التي تكونت لتفسد الإسلام وتمحو حضارته وأفكاره، فإذا فعلنا ذلك بقيت عندنا جماعات الشيعة الأصلية، تلك الجماعات الجديرة بالدراسة، والتي تتفق مع غير الشيعة من المسلمين في كثير من الأحيان (٣).

- أما غلاة الشيعة - والحلولية المنسوبون إلى التصوف - فهم ليسوا شيعة على الإطلاق.. وليسوا متصوفة.. بل ليسوا مسلمين.. بل هم في الحقيقة أعداء لآل البيت، وأعداء للإسلام!!

- وفي الجانب الآخر.. يجب أن نعترف بأنه ظهرت طوائف كثيرة -

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ١٤٨، وانظر د. أحمد شلبي: الدولة الأموية ١٥٨.

(٢) د. شلبي - المرجع السابق ١٥٨ ( عارف تامر - أربع رسائل إسماعيلية ٥١ - ٥٧ )

(٣) المرجع السابق ١٦٦.

في جانب أهل السنة - انحرفت عن الإسلام تحت وطأة نزعات عقلية اعتزالية، أو كلامية، أو عاطفية صوفية، لكن هذه الطوائف سرعان ما كانت تجد مجددین نشطين يردونها إلى الكتاب والسنة، ويقاومون بدعها وخرافاتهما - أحياناً - بأسلوب متدرج هادئ..

ولئن كانت بعض الهيئات والقوى تدعم هذه الاتجاهات صرفاً للناس عن الإسلام الصحيح، إلا أن نمو الوعي الإسلامي المستمد من الثقافة الإسلامية يكشف الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، فانحرفوا عن الكتاب والسنة، حتى لو ناصرهم بعض الأقوياء.. لأهداف غير إسلامية<sup>(١)</sup>!!

وفي ضوء هذا فنحن نأمل أن يظهر في الجانب الشيعي في العصر الحديث مجددون من أمثال الإمام الشوكاني (الشيعي الزيدي) ومثل العلامة أمير البيان «شكيب أرسلان» (الدرزي الأصل) ومثل صديقنا الشيخ محمد علي تسخيري الذي كان يبدي تعاوناً كبيراً معنا في كثير من ملتقيات الفكر الإسلامي، في سبيل التقريب الموضوعي السليم، وفي سبيل الوقوف المشترك ضد اللادينية والمادية اللتين يحاول أتباعهما من المحسوبين على الإسلام تحريف الكلم عن مواضعه، وإخضاع الإسلام للفكر اللاهوتي أو للتطورية العقلانية الرافضة لقدسية الوحي وثوابته.

وقد كانت الأسرة العباسية طليقة الأسر التي استغلت عاطفة الولاء لآل البيت وأقامت لنفسها - على أساسها - دولة عظمى، لكن سرعان ما ظهرت أطماعها المستقلة البعيدة عن الولاء اللهم إلا للإسلام والبيت العباسي<sup>(٢)</sup>.

(١) عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ١ القاهرة : ١٩٦٠ م ص ٢٦٦.

(٢) المرجع السابق ١٦٦.

## بنو العباس واستثمار الولاء لآل البيت

لقد أعلن ميلاد دولة العباسيين مساء يوم الخميس السابع عشر من شهر ربيع الأول ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م، وفي مدينة الكوفة، وكان أبو العباس السفاح (عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس) أول خليفة للدولة العباسية التي ظلت تعمل عشرين سنة أو أكثر - بطريقة سرية تحت شعار الرضا من آل البيت - لتقويض دعائم البيت الأموي، وقيام دولة آل البيت (العباسي، نسبة إلى العباس بن عبد المطلب عليه السلام)..

وفي الخطب الأولى التي واجهوا بها الرعية، أظهر بنو العباس - بوضوح - استثمارهم لشعارات الولاء لآل البيت، بل وقرروا أنهم الفرع الأجدر بالخلافة من فروع آل البيت.. بعد أن أمَّ الخليفة السفاح المسلمون في مسجد دار الإمارة، وبعد الانتهاء من خطبة الجمعة والصلاة، صعد المنبر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم بين فضل بني العباس، وقرباتهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم قال:.... وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرئاسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم: يَمْ، وَلَمْ أيها الناس - إلى أن قال: وثب بنو حرب ومروان فابتزوها، وتداولوها بينهم، فجاروا فيها واستأثروا بها، وظلموا أهلها. فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا وولي نصرنا، والقيام بأمرنا ليُمنَّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإنني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، ثم أثنى على أهل الكوفة وزاد في عطائهم مائة درهم<sup>(١)</sup>.

(١) ابن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٧/ ٤٢٥، ٤٢٧.

وقد أوجز أبو العباس الخطبة، فقام عمه داود بن علي، وصعد المنبر، ووقف دونه، فشكر الله على عودة القوس إلى باريها، والسهم إلى منزعه، وذكر أن خروجهم ليس لجمع الأموال، أو حفر الأنهار، أو بناء القصور، وإنما طلباً لحق اغتصب منهم، وثأراً لبني عمهم من العلويين، وأخذاً لحقهم من ظلم بني أمية لهم<sup>(١)</sup>.

وهكذا - كما تدلنا الوقائع وكلمات الاستهلال لخلافتهم العباسية طويلة العمر - أن نزعة الولاء لآل البيت، أو حسب الشعار الرسمي الذي رفعه العباسيون (الرضا من آل محمد) كانت - الطريق الذي وصلوا منه إلى كرسي الحكم، وقضوا به على خصومهم بني أمية الذين لم تنس الذاكرة الإسلامية لهم، حروبهم مع الإمام علي في الجمل وصفين، وقتلهم، وسجنهم لبعض الرموز الكبيرة مثل الإمام زيد بن علي؛ فضلاً عن استشهاد الإمام الحسين في مذبحة كربلاء، التي كانت الباب الأكبر لتأجيج العواطف نحو آل البيت، وشحن الضمير الإسلامي بموجات قوية من الألم والغضب، بل والشعور بالذنب، والرغبة في الثأر.

وكل هذا قد استثمره العباسيون - بأساليب إعلامية، وعاطفية غاية في القوة والدهاء - فسارت خلفهم جموع الفرس، والجماهير الموالية لآل البيت، ونجحت خطتهم في القضاء على بني أمية وإقامة الدولة العباسية.

وكانت الدولة الأموية؛ الآيلة للسقوط، المتناحرة داخلياً؛ قد قدمت لهم - كذلك - مساعدة كبيرة؛ فالتقت عوامل الانهيار الأموي، مع

(١) محمد سالم العموي: العباسيون في مواجهة الأزمات، ص ١١، نشر دار الصحو، القاهرة

التخطيط العباسي المعتمد على الشحن العاطفي القوي لآل البيت.. فحقق ذلك انتصار العباسيين على الرغم من القوة العددية الكبيرة التي كانت مع آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد في معركة (الزاب) وهي المعركة الفاصلة التي انتهت بنهايتها دولة بني أمية وقامت بعدها دولة بني العباس عام ١٢٢ هـ.



وأخيراً..

فقد سار التاريخ الإسلامي عبر أربعة عشر قرناً وهو يحمل هذا الصراع الذي يعتمد على احتكار بعضهم للولاء لآل البيت، مع أنه جزء من التاريخ الإسلامي، محكوم - مثل كل العلاقات - بضوابط الكتاب والسنة..

وقد أفرز هذا التوظيف دولاً وجماعات ابتعدت كثيراً عن الإسلام، مثل الدولة الفاطمية، والدولة البويهية، وغيرهما..

وقد حان الوقت - في عصر العقل والمصالح المشتركة والتكتلات العالمية - أن نعمل على إزالة هذا الصراع، بالعودة إلى الكتاب، وإلى السنة الصحيحة، بعيداً عن الإفراط والتفريط، والتزاماً بالثوابت والنصوص، والتسامح في كل ما لا يتعارض معهما.

**رابعاً**

**فتنة تأويل النصّ وإلغاء المؤلف باسم**

**الحداثة والتنوير!!**



إن إعادة قراءة النصّ التي تعني إنتاج النصّ إنتاجاً يوافق فكرية القارئ واتجاهاته، بصرف النظر عن دلالات النصّ الحقيقية، وذلك عن طريق تأويل النصّ تأويلاً قد ينقله من اليمين إلى اليسار، ومن الإيمان إلى الكفر بحيث يصبح النص بدلالته المعجمية، ويتعبيره عن قائله وعصره.. أمراً ثانوياً لا قيمة له.. بل أمراً مرفوضاً أحياناً..!!

هذه الإعادة للقراءة وهذا الإنتاج الجديد للنص.. عملان مرفوضان بكل المقاييس العقلية والأخلاقية... بل هما - كما قال كثير من المفكرين - بحق - تزوير من أعجب ما عرفت الحضارات من تزوير، ومصادرة لكل العقول والعصور في التعبير عن رؤيتها وطبيعتها، وقهرها كي تكون معبرة عن رؤية غير رؤيتها وطبيعتها غير طبيعتها دون اعتبار للمنطق والعقل والحق!!

ففي كتابه عن جمال الدين الأفغاني بمناسبة مرور مئة سنة على وفاته كتب الدكتور حسن حنفي المفكر المصري يقول: إن دراسته تعتمد على منهج إعادة القراءة، وإعادة إنتاج النص، ونقله من ظروف القرن الماضي إلى ظروف هذا القرن، تمثلاً للأفغاني وروح عمله..(١).

- والجملة الأخيرة من هذا النص تنقض العبارات الأولى.. فتمثل الأفغاني وروح عمله يمتضي - بل يوجب - قراءته كما أراد الأفغاني نفسه، ويوجب - أيضاً - ربط النص بسياقه التاريخي والمعرفي وعدم فصله عن ظروف إبداعه!!

(١) حسن حنفي: جمال الدين الأفغاني، المئوية الأولى ١٨٩٧ - ١٩٩٧ م - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ م ص ٤٠ مصر.

- وفي كتابه «نقد النص» يتحدث «علي حرب» حديثاً يكاد يكون مطابقاً لحديث «حسن حنفي» عن القراءة الجديدة للنص.. فيقول:

«أن يكون النص منطقة للتفكير أو حقلاً للبحث معناه أنه يحتاج إلى قراءة تحوُّله من مجرد إمكان إلى فعل معرفي منتج ولهذا فشرط القراءة وعلة وجودها أن تختلف عن النص الذي تقرأه وأن تكشف فيه ما لا يكشفه بذاته، أو ما ينكشف فيه من قبل.

وأما القراءة التي تقول ما يريد المؤلف قوله، فلا مبرر لها أصلاً، لأن الأصل هو أولى منها وما يغني عنها، إلا إذا كانت القراءة تدعي أساساً أنها تقول ما لم يحسن المؤلف قوله.. وفي هذه الحالة تغني القراءة عن النص، وتصبح أولى منه»..

«وهكذا ثمة قراءة تلغي النص، تقابلها قراءة تلغي نفسها هي أشبه بعدم القراءة وأعني بها القراءة الميتة التي هي نوع من اللغو أو الهذر والثرثرة، أما القراءة الحية فهي تقرأ في النص المختلف عن ذاته ما يختلف في الوقت نفسه عنه (١).

- ونكتفي بهذين النصين للاستدلال بهما على أننا أمام تأليف جديد، وإسقاطات دلالية جديدة، تحت ما يسمى «القراءة الجديدة» أو تحويل النص إلى فعل معرفي منتج جديد، بحيث تختلف القراءة عن النص الذي نقرأه، بل - بكل وضوح - إلغاء دلالات النص، بحيث يكون النص ليس نصاً، ويقرأ الكاتب ما يريد أن يسقطه من فكره، فلو كان

(١) علي حرب، نقد النص «المقدمة» نشر بيروت.

رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من طلائع الإيمان، ومن دعاة التقدم والتطوير على أساس ثوابت الأمة، فيمكن تحويلهم إلى دعاة إلحاد، وقادة هدم للأديان كلها!!.

- ونحن نتساءل لماذا القراءة أصلاً؟

ولماذا نقرأ الآخرين إذا كنا سنفرض عليهم فكرنا وعصرنا، ونلغي أفكارهم وعصورهم؟! وإذا لم يكن هذا تزويراً وإلغاءً، فماذا يكون التزوير والإلغاء إذن؟.

ولماذا نصر على توظيف الآخرين في الرعاية لأفكارنا والتسُّرُّ من خلفهم؟ ولماذا لا ندعو لأفكارنا بوضوح دون أن تختفي - ظلماً - وراء الآخرين للترويج لأفكار نعجز عن الإفصاح عنها!!

- ويزداد الأمر حدةً وتضليلاً إذا طبقنا هذا المنهج على النصوص المقدسة التي من وظائفها أن ترسم منهج الحياة للناس وتحدد علاقتهم بالله من خلال الشريعة.. فهنا يمكن إلغاء الوحي ويمكن تطويع كل قراءة للنصوص للأيديولوجيات المسبقة، والحكَّام، والأهواء والتقلبات الفكرية والسياسية، حتى تُبرَّر الأوضاع المتردِّية في كل عصر، وتبحث عن المخارج لكل أنواع الابتذال والانحطاط، وبالتالي تجري النصوص وراء تقلبات العصور بعد أن تفقد اتصالها بالثوابت الإنسانية التي تنظم علاقة الإنسان بالكون وخالق الكون والحياة والأحياء.

- ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن هذا هو المقصود الأسمى من وراء ما يسمى بإعادة إنتاج النص أو بقراءته قراءة جديدة، أو بتحقيق عصريته أو تحديثه، أو تأويله، إلى غير ذلك.

- وقد رأينا الصلة الوثيقة بين أصحاب هذا النهج وبين المركسة والعلمنة والاستغراب والصهيئة، ووجدنا أنهم يقفزون من وراء تخصصاتهم، نقداً كان أو أدباً أو فلسفة أو فكراً إلى الطعن في الأديان، وإلى تأليه العقل على حساب النقل، بحيث يكون العقل وحده هو المعبود الذي لا شريك له من وحي أو نبوة.. وبالتالي ينتهي دور الأديان والثواب والقيم المطلقة، وتُعبَّدُ البشرية العقل وحده حتى لتبيح تحت مظلته المطاطة زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة!

- وفي موقف من المواقف يعود الأستاذ «محمد أركون» - الكاتب الجزائري الفرنسي، إلى شيء من الحق بعد أن سقطت معظم مقولاته، الداعية إلى لاهوت العقل وحده، ولم تترك مقولاته وأطروحاته إلا الجراثيم السامة في تراث بعض الزاهدين في الحق، الراغبين في عبادة الدنيوية وحدها لا شريك لها.

- يعود «أركون» في حديث دار بينه وبين «أدونيس» إلى شيء من الحق، فيصرح أن مشروعه الفكري يقوم على تحرير النص الأول، أي الوحي القرآني من النص الثاني، أي من تأويله وشروحاته، لأن هذا الأخير حجَبَ النصَّ الأولَ وأسرّه، مشكلاً بذلك حجاباً كثيفاً حال بين المسلم وبين الوصول إلى الظاهرة الأولى التي هي «الظاهرة المعجزة» على حد تعبير «أركون» «مواقف عدد ٥٤» (١).

وعندما يصرح الأستاذ أركون بهذا الإيمان «الظاهرة المعجزة» تقوم قيادة تلميذه «الملكي أكثر من الملك» علي حرب فينبري للقول:

(١) علي حرب نقد النص ٦٦.

- ليس المهم ما يُصرَّح به أركون وإنما المهم منطق بحثه وبنية تفكيره، وليس المهم ما يقوله عن نفسه ويعترف به، بل المهم معنى أقواله، والأهم ما يحجبه ويسكت عنه ويبدو أن علي حرب وأمثاله يعلمون ما في الصدور!!.

- ولهذا فإنني أعتبر - والكلام لعلّي حرب - أن اعتراف أركون في حديثه لأدونيس عن صلته الحميمة «بظاهرة الوحي» موقف إيماني عقائدي أو عشقي، لا موقف ناقد محلل!!.

- ولكن للمسألة وجهها الآخر وهو الأهم - والكلام لعلّي حرب فأركون يقوم بتفكيك بنية النص المفهومية والمصطلحية من أجل الكشف عن قواعد ابنائه وقواعد اشتغاله، «أي القرآن» بوصفه نصاً له بنيته الأسطورية!! وله فعاليتها المركزية، وطاقته البيانیه الجمالية «....» بل يقوم بعمل الحفر والتفكيك فيكشف عن المحجوب ويتكلم على ما هو مسكوت عنه، ويقرأ القرآن من خلال تاريخه (١).

- وتاريخيته - كما هو معروف عن هذه المدرسة - تعني بشريته، وأنه - أي القرآن - إنتاج ثقافي واجتماعي وإنساني!!

وبالطبع فتحن لا نستطيع أن نتبع النصوص غير المعقولة! التي تمتهن المنطق والعقل واللغة. وتلعب بالكلمات والعقول، وتحرم البشرية من بناء الحضارات وفق ضوابط عقلية ولغوية محددة المعالم، وتجعل الفكر أو العقل الفردي مجرد لاعب بعقول الآخرين، مستخف بها، يلغيها ويفرض عليها رؤيته العبثية وألاعيبه الجدلية!!.

(١) المرجع السابق ص ٦٦.

وسلام على التراث الإنساني كله وعلى التراث الإسلامي بخاصة<sup>١</sup>. وفي تعليقه على واحد من أكبر المشروعات في هذا الطريق الوعر المدمر للتراث الفكري الحضاري «الدكتور حسن حنفي» يقول الدكتور محمد عمارة.

وإذا نحن شئنا إيجازاً للمشروع الفكري للدكتور حسن حنفي من خلال كتابه هذا «التراث والجديد» الجامع «للمقدمات النظرية» لمشروعه كله فإننا نقول:

إنه محاولة أنسنة الدين «أي جعله إنتاجاً عقلياً إنسانياً كأى إبداع بشري» وتضيغه من محتواه بإلغاء ثوابته ومطلقاته ومقدساته من الله إلى النبوة... إلى الرسالة.. إلى الوحي.. إلى الغيب.. إلغاء كل ذلك.. بإعطائها مضامين ومفاهيم إنسانية أرضية... أي إلغاء الغيب كمصدر للمعرفة، وقصرها على عالم الشهادة، وقصر سبل المعرفة على العقل والتجريب وحدهما.. أي إلغاء كل ما يجاوز الحس والمشاهدة، وتأويل كل ما له علاقة بالدين والغيب والألوهية والنبوة والرسالة والوحي على النحو الذي يؤنسونه، ويجعله إفرازاً بشرياً..

- فنحن إذن - بإزاء استعارة لفلسفة «التتوير - الفريي - العلماني» يريد الدكتور حسن حنفي أن يتعامل بها مع الإسلام كما تعامل التتويريون الغربيون مع النصرانية الأوروبية إبان النهضة الأوروبية الحديثة<sup>(١)</sup>!!

ومن ثم يفضح الدكتور عمارة المشروع التضليلي التتويري لحسن حنفي فيقول:

(١) الإسلام بين التتوير والتزوير ١٨٨ وما بعدها دار الشروق ١٩٩٥ م.

«يشبه الدكتور حسن حنفي التراث بالمخزون النفسي» وينتقد مذهب الذين يكتفون به.. ومذهب الذين يكتفون بالجديد - الاكتفاء الذاتي للتراث.. والاكتفاء الذاتي الجديد<sup>(١)</sup>.

ويقدم مذهبه هو في التعامل مع هذا «المخزون النفسي» - التراث - مذهب التراث والتجديد، فإذا به تصفية لهذا المخزون وتبخير له، وتخلص منه، لا «يرفضه» كما يصنع أنصار الاكتفاء الذاتي بالجديد وإنما بإعادة تفسيره التفسير الذي يجعله مساوياً تماماً لـ «جديد» أنصار «الاكتفاء الذاتي بالجديد»<sup>(٢)</sup>.

فهو يلغيه ويصفّيه، لكن باسمه وبلغته وتحت مظلتها، وهذا منهج أذكى ولا نقل: «أخبث»! في التعامل مع هذا المخزون!! لأنه سبيل غير مباشر» في التصفية والإلغاء» أما الهدف والغاية فلا مساومة فيها، فمهمة «التراث والتجديد» هي التحرر من السلطة بكل أنواعها: سلطة الماضي، وسلطة الموروث، فلا سلطان إلا للعقل ولا سلطة إلا لضرورة الواقع الذي نعيش فيه، وتحرير وجداننا المعاصر من الخوف والرهبة والطاعة للسلطة، سواء كانت الموروث أو سلطة المنقول»<sup>(٣)</sup> «وبالطبع مهما كانت هذه السلطة على الحق»!!

- ونحن هنا - كما نرى - إزاء عملية خطيرة فسوف نجد بين أيدينا انقلاباً كاملاً يتلاعب بعقولنا، يشبه ذلك الانقلاب المردول الذي كان يتلاعب به الماركسيون حين كانوا يعمدون إلى تطويع التاريخ والدين

(١) محمد عمارة - الإسلام بين التثوير والتزوير ص ١٨٩، راجع التراث والتجديد ص ٢٨.

(٢) التراث والتجديد، نقلاً عن محمد عمارة: الإسلام بين التثوير والتزوير ص ١٩٠.

(٣) د. محمد عمارة الإسلام بين التثوير والتزوير ص ١٩٠.

والفكر واللغة للرؤية الماركسية، فيمركسون الصحابة رضوان الله عليهم ويمركسون الإسلام وتاريخه، ويؤولون كل شيء وفق رؤيتهم المادية والصراعية والجدلية»<sup>١</sup>.

- وتجدر الإشارة إلى أن «حسن حنفي» - أول في أطروحته: "Les methodes d, exegese «طرائق التأويل» الانطلاق من أسباب النزول لاستنتاج أن القرآن ليس وحياً من الله، وأنه يعبر عن تجربة محمد البشرية التي يمكن النفاذ منها إلى التجربة البشرية عموماً في بحثها عن حقيقتها الإلهية «أي رسالات كل الأنبياء» وهو ما يخوِّله تأويله - أي تنزيل القرآن - حسب حاجات الأمة الإسلامية - أي إن «الحاجات» في رأي حسن حنفي هي التي تقود القرآن، وليس القرآن هو الذي يقود الحاجات ويهذبها ويقتنها ويحتفظ بدائرتها الإنسانية والأخلاقية والريانية.. وهكذا يبدو «حسن حنفي» طول عمره، رافضاً لله وللدين وللوحي السماوي مؤمناً - فقط - بالإنسان والإلهام الأرضي الذي يسميه «الوحي البشري» أي التجارب الإبداعية.

وأكثر هؤلاء اللادينيين خيانة حضارية أولئك الذين يزعمون أنهم مجددون يقومون بما يسمى «النقد اللاهوتي» على غرار ذلك النقد، اللاهوتي الذي عرفته أوروبا، ويزعم هؤلاء أن ذلك سبيل من سبل التقدم، متجاهلين الفرق بين اليهودية وتوراتها التي كتب في ألف سنة من خلال أكثر من مئة كاتب - باعتراف أصحابها أنفسهم<sup>١</sup> من الباحثين الأكاديميين من غير اللاهوتيين<sup>٢</sup>

ومثلها الدين المسيحي الذي ليس له كتاب كالقرآن، وإنما له مجموعة أناجيل تنسب إلى بعض أصحاب المسيح، ومن جاء بعدهم، فالنقد

اللاهوتي ينصب أساساً على نقد هذه النصوص التي جمعت في فترة متأخرة ورويت عن أشخاص عاشروا المسيح أو عاشروا من عاشروه (١).

أما في المحيط الإسلامي، فهناك كتاب مقدس هو القرآن، لم يلحقه تغيير ولا تحريف منذ جمع في عهد عثمان (رضي الله عنه) ومن أكبر الأدلة على ذلك أن النزاع الفكري والمسلح الذي قام زمن عثمان بين أصحاب علي من جهة وأصحاب عثمان ومعاوية من جهة أخرى لم تبرز في أي تهمة بصدد النص القرآني الذي جمع في عهد عثمان.

لقد كانت هناك اتهامات متبادلة لا حدود لها وصلت إلى حد التكفير وإلى حد الفتنة والقتل ولكن لم نسمع عن أي واحد من خصوم عثمان يتهمه بأنه جمع القرآن مبتوراً، أو أحدث فيه هو أو غيره تغييراً (٢).

هذا بالإضافة إلى عشرات الأدلة النقلية والتاريخية والعقلية، التي تؤكد أن هذا القرآن الذي بين أيدينا هو الذي حفظه المسلمون في صدورهم، وصلّوا به مع نبيهم (ﷺ)، في عصر الرسالة ثم في عصور الراشدين وتعبّدوا بتلاوته، آناء الليل وأطراف النهار، وقرأه المسلمون رجالاً ونساءً، في السلم وفي الحرب، ونقلوه إلى الأمصار نقلاً متواتراً. لدرجة أن القارئ قد يخطئ في كلمة أو حرف فيرده الناس مهما كان مركزه، ولم يجروا مجمع ديني، أو حاكم ديني مهما بلغ فسقه أو جبروته، أن يتدخل في تغيير حرف واحد منه!!

وكم حاول أعداء الإسلام طبع مصاحف، بها بعض التحريف، فقامت الأمة كلها بحرقها والثورة على فاعليها، وبقي القرآن

(١) محمد عابد الجابري: المسألة الثقافية في الوطن العربي ص ٢٨٠، نشر مركز دراسات الوحدة

العربية، بيروت ط٢، ١٩٩٩ م.

(٢) الجابري - المرجع السابق ص ٢٧٩.

تنقله الأجيال، «حجة لله على الناس» وكلمة خاتمة لوحى السماء!!  
 وإذن فهو نوع من العبث والإفساد فى الأرض، القول بإمكانية إيجاد  
 نقد لاهوتى للقرآن على غرار التوراة والأنجيل، وكما يقول الأستاذ  
 محمد عابد الجابري:

- فمثل « هذا النقد اللاهوتي لا يمكن ممارسته على القرآن، لأنه  
 ثبت أنه هو نفسه الذى نزل على النبى، وليس هناك ما يبرر أى شك  
 فى هذا، وبالتالي فإن النقد اللاهوتي بالمعنى الأوروبى الحديث، غير  
 ذى موضوع بالنسبة للفكر الإسلامى» (١).

ويبدو أن هذا العبث ظاهرة مكررة فى التاريخ، وأنه منهج يظهر فى بعض  
 عصور الضعف والهوان تقليداً للغالب وذوياناً فيه، وطمساً للهوية والشخصية  
 تحت شعارات تسمح بتمرير هذا الذوبان وهذه التبعية وخداع النفس  
 والآخرين.. ولربما كانت هذه الظروف الأسيّفة هى الدافع لظهور بعض  
 المذاهب المتشددة فى التفسيرات الحرفية للنصوص، حتى ولو كانت ضعيفة  
 الثبوت على حساب القياس وإعمال العقل، وهى المدارس التى تسمى «مدارس  
 الظاهر» أو مدارس الفهم «الظاهري» المرتبط ارتباطاً كاملاً بدلالات النص  
 اللغوية الظاهرة والرافض لأي مجازات.. أو تفسيرات إشعاعية.

ونحن نعتقد أن هذه المذاهب الأثرية والظاهرية كان لها مبررها  
 العَقدي والتاريخي، فقد تألفت فى مواجهة عصور التصوف التأويلي  
 والتأويلات التحريفية.

(١) الجابري: المرجع السابق ص ٢٨٠.

وقد عقد ابن حزم الأندلسي «ت ٤٥٦ هـ» فصلاً خاصاً في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام» عن ضرورة حمل الأوامر والأخبار على ظواهرها» (١).

ومن خلال أحاديث ابن حزم نستخلص أنه كان يستعمل مصطلح الظاهر الذي نسب إليه منهجه الفكري، بمعنى « الخروج من الخفاء - التأويل» اعتماداً على المعنى الواضح البارز بذاته الذي يستبطنه العقل على البديهة بحكم منطوق اللغة ودلالة مفهوم خطابه الذي يبدو للسامع وفق استعمال العرف والعادة (٢).

ومن قول ابن حزم المبين لذلك:

«واعلموا أن دين الله ظاهر لا باطن فيه، وجهر لا سرّ تحته. كله برهان لا مسامحة فيه، وأتهموا كل من يدعو إلى أن يتبع بلا برهان. وكل من ادعى الديانة سرّاً وباطناً فهي دعاوى ومخاريق واعلموا أن رسول الله لم يكتف من الشريعة كلمة فما فوقها... ولا كان عنده (ﷺ) سر ولا رمز ولا باطن (٣).

وإذا كان علي حرب قد ضاق ذرعاً بأستاذه ومعلمه محمد أركون عندما أصر على إيمانه بارتباط النص الأول - القرآن - بالوحي وإيمانه الذي جاء متأخراً - بأن الاجتهاد أو التأويل يجب أن ينصب على تخليص النص الأصلي من الاجتهادات التراثية البشرية.. فإننا

(١) الإحكام الجزء الثالث الباب الثاني عشر.

(٢) انظر ابن حزم الرد على ابن النفريلة اليهودي ووسائل أخرى ص ٩٤.

تحقيق إحسان عباس - دار العروبة- القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م.

(٣) ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ١١٦/٢ طبع المثنى بغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة.

سنجده يظهر التبرم نفسه من الدكتور نصر أبي زيد لأن هذا الأخير لم يعلن - بالوضوح الذي يريده علي حرب - الرفض لارتباط القرآن بالوحي والمتعالي والإعجاز الرباني...

يقول علي حرب في مناقشة لنصر أبي زيد تحت عنوان «التلفيق المنهجي» ونلاحظ هنا رداءة العنوان.. يقول علي حرب «مالا يتوقف أبو زيد عن التشديد عليه وترداده على امتداد خطابه أنه يحاول فهم النص فهماً علمياً لا فهماً غيبياً أسطورياً، وذلك بالتعامل معه باعتباره منتجاً ثقافياً، وبالاعتماد على منهج قوامه، أن الواقع هو المدخل إلى فهم النص. «إن النص في حقيقته وجوهره - كما يرى حرب - مُنتج ثقافي، والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاماً، وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو متفقاً عليها، فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ويعكّر - من ثم - إمكانية الفهم العلمي لظاهرة النص لكن أبا زيد سقط في رأي علي حرب حين قال:

«إن الإيمان بالمصدر الإلهي للنص ومن ثم لإمكانية أي وجود سابق لوجود العيني في الواقع والثقافة، أمر لا يتعارض مع تحليل النص من خلال فهم الثقافة التي ينتمي إليها «مفهوم النص ص ٢٤» وهذا كلام كما يزعم حرب هو «في منتهى التلفيق»<sup>(١)</sup> بل إن حرباً يعد هذا النص.. «النص الفضيحة».

(١) علي حرب نقد النص ص ٣٠٩.

ومرة أخرى نقول: إن التأويل - بهذا المستوى - الماركسي» الذي يتدنى إليه أمثال علي حرب وحسن حنفي، خطر على العقل البشري والتراث الإنساني كله، وقد رأينا من خلال العرض السابق أنه خطر حتى على بعض أصحابه.. فهذا هو حرب لا يعجبه محمد أركون ولا نصر أبو زيد.. فهما عنده ملفقان متناقضان، والنار - كما يقولون - تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله»<sup>١</sup>.

وإذا كنا لا نميل إلى القول بالظاهر الذي يكاد في بعض الأحيان يقتل دلالات اللغة المجازية المنقولة من المعاجم المعتمدة والمجامع المعتبرة، ويرفض كل تأويل حتى ولو كان يدخل بوضوح شديد في إشعاعات النص ومجازاته، ويخضع لضوابط التأويل المحمود المقبول عقلاً ونقلاً ولغةً.

إذا كنا كذلك فنحن أيضاً نرفض التأويل المعاصر الخاضع للأهواء والشهوات النفسية والإسقاطات الفكرية ونراه خطراً على العقائد واللغات والآداب والحضارات..

وفي مجال الأديان بعامة والدين الإسلامي بخاصة نجد كثيراً من العلماء في القديم والحديث، قد رصدوا خطورة التأويل وآثاره المدمرة على حقائق الأديان بعامة.

كما أن كثيراً من العلماء قد استفاضت أقوالهم في الحديث عن جناية التأويل الباطل على الإسلام وعلى كل الأديان، وقد أفاض في هذا ابن القيم - رحمه الله تعالى - فذكر أن التأويل والفتن كبيرها

وصغيرها إنما وقعت بالتأويل وأعداء الإسلام إنما سلطوا علينا بالتأويل ودماء المسلمين إنما أريقت بالتأويل.

وافترق اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة، والنصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، وافترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة إنما أوجبه التأويل.

وما دخل أعداء الإسلام من الفلاسفة المنحرفين والقرامطة والباطنية والإسماعيلية إلا من باب التأويل.

وما سلط سيوف التتار على دار الإسلام غير التأويل (١).

ولا يخلو الأدب والنقد والفن والتاريخ والفلسفة من آثار هذا المنهج التأويلي المزاجي الإسقاطي، فطبيعة المنهج أن آثاره ممتدة.. تكاد تنتظم كل الميادين التي تتعامل معها، بل إن هذا الأدب الهابط - شعراً ونثراً الذي يتبنى مقولات الإلحاد والهدم والانحلال - إنما هو في الحقيقة رشح للتأويلات المزاجية والإسقاطات الفكرية فضلاً عن ارتباطه بتيارات تقوده إلى أهدافها، وهو يعلم في أكثر الأحيان - وقد ينقاد - جهلاً في أقل الأحيان!!

(١) التأويل خطوره وآثاره من ٦٦، ٦٧ د. عمر سليمان الأشقر نشر دار النفائس، الأردن ط١/١٤١٢ هـ.